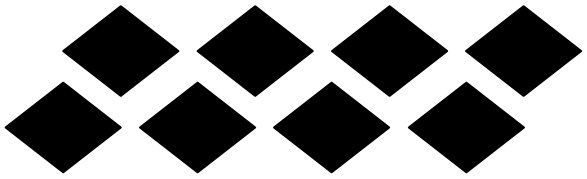

قراءة في القصيدة العمرية للشاعر "حافظ إبراهيم" دراسة تحليلية

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

د. عزة محمود البكري

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية البنات الإسلامية بأسيوط

مقدمة:

الحمد لله الذي تفرد بالبقاء، وكتب على غيره الفناء، الحمد لله له العزة والكبرياء، له أجل الصفات وأحسن الأسماء الرحمن الرحيم لا عيب في أسمائه لأنها الحسنى، ولا نقص في صفاته لأنها العليا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وعلى أله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

وبعد

إن المتتبع للتاريخ الإسلامي يجد أنه خلَّف لنا عظماء خلدهم التاريخ على مر العصور، شهد لهم بالعظمة الأعداء قبل الأصدقاء، وكان إمام العظماء في التاريخ البشري رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم -، ثم صحابته رضوان الله عليهم،ومما لاشك فيه أن شخصية " الفاروق " عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الشخصيات البارزة في تاريخ الأمة الإسلامية، تلك الشخصية الفذة العبقرية التي تشربت واستوعبت كل القيم والمبادئ والمثل العليا التي نادى بها الإسلام مقتديا بالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -، فهو- رضي الله عنه- من الشخصيات التي أحبها الله ورسوله، وقد ورد في فضله أحاديث كثيرة وهو من الشخصيات النادرة التي جسدت الإسلام تجسيدا حقيقيا،وهو الصحابي الجليل صاحب السيرة العطرة الزكية الذي ملأ الدنيا، وقد برزت عبقريته ونبوغه وعظمته في ميادين مختلفة ومتنوعة، فهو عظيم في عدله، عظيم في قوته وجرأته، عظيم في سماحته ورحمته، عظيم في زهده وورعه، عظيم في مجاهدة نفسه وتقواه، عظيم في بناء دولته على المساواة،وعلى المبادئ والأسس التي أرساها ورسخها. والتي ورثها عن النبي- صلى الله عليه وسلم-.

هذا وقد وقفت طويلا أمام القصيدة " العمرية " التي نظمها الشاعر " حافظ إبراهيم " والذي أبدع في سرد تاريخ " عمر " - رضي الله عنه - في مطولة شعرية لاقت القبول والاستحسان في عصره، وما زال صداها يتردد في القلوب قبل الأذان إلى يومنا هذا، والشاعر في مطولته يعرض لمحات من عبقريته الفذة ، ويشير إلى جوانب العظمة في شخصيته، وقد اتبع تسلسلا معينا في وضع المحاور في القصيدة، وكل محور يحمل موضوعا مختلفا عن سابقه ولاحقه ، واختار نماذجًا من سيرته ومواقفه - رضي الله عنه - لكنها في مجملها توضح سمات وشخصية عمر وسر عظمته، حتى أصبح من العلامات المضيئة في تاريخ البشرية، ومن الشخصيات النادرة التي يصعب بل ويستحيل تكرارها.

وحسب علمي أن القصيدة العمرية لم يتناولها أحد بدراسة مستقلة شاملة، وإنما أوردها بعض الباحثين وبعض الكتاب في ثنايا تناولهم لشخصية وشعر حافظ، فبعضهم أشار إليها إشارات عابرة، وبعضهم خصص لها صفحتين أو ثلاثة للتعليق عليها.لهذا وجدت في نفسي رغبة قوية وجامحة لإعادة قراءة القصيدة قراءة متأنية عميقة ومحاولة تحليلها تحليلا شاملا يكشف ما فيها من تجلياته الإبداعية، وطاقاته الجمالية.

ولعل اختياري لهذا الموضوع أيضًا يرجع إلى بيان كيف وظف الشاعر هذه المواقف العمرية لخدمة أفكاره وأمنياته لوطنه وعروبته، ونظرًا لما لمسته من تأثيرها القوي على كثير من الأدباء فحاكوها بل ومازال الكثيرون يستشهدون

بأبيات منها في مناسبات كثيرة، هذا ما دفعني كذلك إلى قراءة القصيدة أكثر من مرة، وأقف طويلًا على الجوانب المضيئة التي أبرزها الشاعر وركز عليها، كذلك محاولة فهم الغرض والمغزى التي أراد الشاعر أن يضمنها إياها، فشدني إليها تلك القيم النبيلة، والمبادئ القويمة التي أرساها هذا الصحابي الجليل مقتديا بالرسول الكريم -صلى الله عليه

وسلم - والتي لو تحققت في أي مجتمع من المجتمعات لساد وأصبح له الريادة،ولأبين أيضا من خلال تحليلي للقصيدة إن جاز لي التعبير بعضًا من الخصائص الفنية لشعر" حافظ" من خلال القصيدة التي أظهرت علاقته الوثقى بالتراث العربي في أبهى صوره وأصفاها، سواء من ناحية الموضوعات والقضايا، أو من ناحية الأساليب والصياغة.

هذا وقد تضمن البحث مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

المقدمة: تناولت فيها سبب اختياري لهذا البحث.

الفصل الأول: العوامل المؤثرة في تكوين شخصية "حافظ إبراهيم وصداها في شعره" تحدثت فيه عن حياة الشاعر ونسبه ونشأته وأثر ذلك في اتجاهاته الفنية ومذهبه في الحياة.

الفصل الثاني: قراءة في القصيدة العمرية.

تناولت فيه بعض المبادئ والقيم التي حرص الشاعر علي إبرازها من خلال القصيدة.

الفصل الثالث : تناولت فيه أهم الخصائص الفنية لشعر" حافظ " من خلال القصيدة العمرية موضوع الدراسة.

الخاتمة : تناولت فيها أهم ما توصلت إليه الدارسة.

ثم أعقبت ذلك بالمراجع التي اعتمدت عليها، ثم فهرس بأهم موضوعات البحث.

هذا وقد حاولت جاهدة أن يخرج هذا البحث في صورة جيدة فبذلت قصارى جهدي،فإن كان هناك تقصير أو خطأ فحسبي أني بشر يصيب ويخطئ. والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجه الله تعالى.

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

الفصل الأول
العوامل المؤثرة في تكوين شخصية "حافظ إبراهيم وصداها في شعره"

لست بصدد ترجمة عن الشاعر حافظ إبراهيم، فليس ذلك موضوع بحثي، غير أني أجد من المناسب الحديث عن أبرز العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية ذات الأثر القوي في تكوين شخصيته،واتجاهه الفني، ليستضاء بذلك في الربط بين المؤثرات وصداها في شعره وسماته الفنية. هذا وقد استفدت في هذه العوامل من مقدمة ديوان" حافظ" وكذلك من كتاب "حافظ إبراهيم شاعر النيل " للدكتور عبد الحميد سند (بتصرف). ولعل من أبرز هذه المؤثرات ما يلي:

أولا : مولده ونسبه:

في الرابع من شهر فبراير من سنة ١٨٧٢م ولد " محمد حافظ إبراهيم " في ذهبية كانت راسية في النيل بالقرب من قناطر"ديروط" مدينة من المدن التابعة لمحافظة أسيوط جنوب مصر وكان أبوه المهندس إبراهيم فهمي أحد المهندسين المشرفين على قناطر ديروط، وكان مصريا صميما، أما أمه فهي السيدة " هانم بنت أحمد البورصة لي " من أسرة تركية عريقة محافظة،كانت تسكن حي المغربلين، وبذلك اجتمع في حافظ دمان، دم مصري صميم مستمد من والده، ودم تركي مستمد من والدته،ومن مجموع خصائص الوراثة المشتركة وتفاعلها في نفس حافظ وتكوينه، تكونت شخصيته وبرزت خصائصه ومميزاته.

ثانيا : صدى اليتم والغربة :

تفتحت عينا "حافظ "على مياه النيل الرقراقة، فكان بذلك إرهاصا لطيفا بأن الذي ولد على صفحة النيل لقب فيما بعد بشاعر النيل.

درج الطفل "حافظ "على ظهر الذهبية ينعم بحنان والديه ويرضع من لبان حبهما، وفي سنته الرابعة لفَّ الذهبية حزن غامر وهمٌ شديد، فقد توفى والده دون أن يترك للأم مالاً تستعين به في تربة الطفل، فرأت الأم أنه لا بد من الرحيل مع ولدها إلى القاهرة لتعيش في كنف أخيها" محمد أفندي نيازي " المهندس بالتنظيم".

بلغ " حافظ " السن التي تؤهله لدخول المدرسة فأدخله خاله أقرب مدرسة إلى منزله في ذلك الوقت، وكانت المدرسة الخيرية بالقلعة، فتعلم فيها القراءة والكتابة وشيئا من العربية والحساب والدين.

ثم التحق بعد ذلك بمدرسة "القِربية "الابتدائية،وتحول بعدها إلى مدرسة "المبتديان"، ثم المدرسة الخديوية وهما من المدارس الثانوية.

نُقل خال "حافظ" الذي كان يرعاه ويتولى شؤونه إلى طنطا فكان لزاما أن ينتقل معه "حافظ". خرج "حافظ " من القاهرة إلى طنطا من عالمه الذي ألفه واطمأن إليه إلى عالم جديد غريب عليه، ليس له فيه غير خاله وهذا الخال مهما كان عطفه وحدبه هو رجل جاد يسعى وراء لقمة العيش حيثما كانت وأينما كتبت له، ورجل بهذا الحال هو أبعد ما يكون عن الملاينة أو تقدير الظروف التي يمر بها الغلام، والتي تحتاج إلى مداواة النفس من اليتم والغربة، وأظن أن ذلك قد حفر في نفس الغلام ونمى عنده شعور بالحرمان مما ينتظره الوليد من أبيه الذي رحل عنه وخلف في نفسه فراغا لا يستطيع وصفه إلا من ذاق مرارة اليتم.

ثالثا : الميول الأدبية والاستعداد الفطري وأثرهما في تكوينه:

ألحقه خاله بمدرسة ثانوية بطنطا لاستكمال تعليمه، وانصرف خاله إلى عمله الذي يستغرق كل وقته، ولكن ميول الغلام الأدبية واستعداده الفطري جعله يتمرد على هذه المدرسة وعلى ما يتلقاه من دروس فيها، فكان يذهب إليها يوما ويتغيب عنها أياما، لا انصرافا عن التعليم، وإنما لأن الذي يتلقاه فيها من دروس لا يتفق وميوله الذاتية والأدبية التي وجدها في الجامع الأحمدي بطنطا، فكان يجلس في حلقات الدرس يتلقى على الأئمة العلماء دروسا تجذبه إليها،وفي مقدمة ذلك الشدو الشعري الذي يثير انتباهه ويملك عليه حواسه، فيدفعه ذلك إلى البدء في دراسة الشعر فيعنى بذلك ويطلع على دواوين الشعراء القدامى، فيقبل على مأثور المنظوم والمنثور قراءة وحفظا، وكان له حافظة قوية تسعف ذوقه وتلبى اختياره فما يختار حسنا من القول حتى يرتسم في حافظته، ويبقى في ذاكرته، ولم يمض وقت طويل حتى نظم الشعر وبرع فيه على نحو أثار إعجاب الكثيرين من شيوخ الأدب وذواقيه في مدينة طنطا.

ولم يستطع خال حافظ أن يقبل منه هذه الفوضى وهذا الانقلاب في نظره وبخاصة أنه المسئول الأول والأخير عنه، فزاد من تأنيبه وتقريعه ولومه، فيهتاج حافظ ويغضب ويعزم على قطيعة خاله الذي يقف عقبة في سلوكه طريق الأدب والشعر الذي رضيه لنفسه، واختطه لحياته، فترك له البيت مخلفا من ورائه هذين البيتين اللذين يدلان على ما في نفسه من ألم عميق تجاه ما يحدث يقول[1].

ثقلت عليك مؤونتى إني أراها واهيه
فأفرح فإني ذاهب متوجه في داهيه

وعلى الرغم من سذاجة هذا الشعر وتلقائيته وفطرته، فإنه يدل على ما كان يعتمل في نفس الفتى من ألم ممض، ويدل في الوقت نفسه على روح لا يزايلها المرح والفكاهة في وقت الشدة.

رابعا المعاناة الاجتماعية :

عزم حافظ أن يبدأ محاولاته في كسب قوته بنفسه، فترك المدرسة،واشتغل عند بعض المحامين،ولم تكن المحاماة في ذلك الوقت منظمة بقانون وكانت غير خاضعة لقيد التأهيل،وإنما كانت مهنة مفتوحة يلجها وينخرط فيها كل من أنس في نفسه صلاحا لها، ولعل الذي دعا حافظ إلى ذلك ما كان يتمتع به من فصاحة اللسان وقوة الحجة وحسن المنطق وغزارة البيان، فالتحق بمكتب أحد المحامين وهو الشيخ محمد الشيمي، لكنه لم يلبث عنده، فقد تركه وترك له كما ترك لخاله بيتين من الشعر هما[2].

جراب حظي قد أفرغته طمعا بباب أستاذنا الشيمي ولاعجبا
فعاد لي وهو مملوء فقلت له مم ؟ فقال من الحسرات واحربا

وأخذ حافظ ينتقل من مكتب إلى مكتب، إذ كان ملولا بطبيعته لا يستقر على حال ولعله داء القلق النفسي الذي لازمه طوال حياته نتيجة لما تعرض له من أزمات نفسية توالت عليه منذ طفولته.

١- ينظر حافظ إبراهيم شاعر النيل/ د عبد الحميد سند الجندي ط دار المعارف ط ثالثة ص ١٨،١ومقدمة ديوان حافظ إبراهيم ج٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢- المرجع السابق.

ثم ما لبث أن التحق بالمدرسة الحربية التي لم تكن تشترط أكثر من الشهادة الابتدائية للالتحاق بها، حيث وجدها فرصة تكفل له وظيفية تدر عليه راتبا شهريا يدرأ عنه الحاجة، وفي الوقت نفسه يستطيع أنة يشبع هوايته الأدبية كما يشتهى.

تخرج حافظ من المدرسة الحربية سنة ١٨٩١م وعين في وزارة الحربية وظل بها ثلاث سنوات ثم نقل إلى الشرطة التي كانت تستمد ضباطها من الجيش وقتئذ، ثم أعيد إلى الجيش وخدم في السودان ما يقرب من

السنتين أحيل بعدهما مرتين إلى الاستيداع ولم يلبث كثيرا حتى طلب إحالته إلى المعاش سنة١٩٠٣.

أخذ " حافظ" يبحث عن عمل يرتزق منه إذ كان معاشه ضئيلا لا يكفى حاجته، فقدمه الشاعر "أحمد شوقي" إلى جريدة الأهرام ليعمل فيها، ولكنه لم يوفق فطفق يضرب في الأرض باحثا عن عمل فلم يصب شيئا من التوفيق، فساءت حالته وخالط نفسه اليأس وأخذ يصف بؤسه وإخفاقه قائلا : [١].

سعيت إلى أن كدت أنتقل الدما وعدت وما أعبقت إلا التندما

ويشير في أبيات أخرى إلى هذا الفشل برغم سعيه المتواصل، وإلى ضآلة حظه في الحياة، وتنكر الزمن له، مع أن همته لم تقعد به عن الطلب وبذل الجهد وراء الغاية يقول:[٢].

ماذا أصبت من الأسفار والنصب وطيك العمر بين الوخد والخبب
نراك تطلب لاهونا ولاكثبا ولا نرى لك من مال ولانشب
كم همتُ في البيد والآرام قاتلة والشمس ترمى أديم الأرض باللهب
وكم لبست الدجى والترب ناعسة والليل أهدأ من جأشي لدى النوب
لكنني غير مجدود ومافتئت يد المقادير تقضينى عن الأرب
وقد غدوت وآمالي مطروحة وفي أموري ما للضب في الذنب
ماذا أصبت من الأسفار والنصب وطيك العمر بين الوخد والخبب
نراك تطلب لاهونا ولاكثبا ولا نرى لك من مال ولانشب
كم همتُ في البيد والآرام قاتلة والشمس ترمى أديم الأرض باللهب
وكم لبست الدجى والترب ناعسة والليل أهدأ من جأشي لدى النوب
لكنني غير مجدود ومافتئت يد المقادير تقضينى عن الأرب
وقد غدوت وآمالي مطروحة وفي أموري ما للضب في الذنب

وهذا الشعر يدل على نفس قد حطمها اليأس ومزقها القنوط، فراحت تنشد الموت الذي يخلصها من هذه الحياة البغيضة وذاك العذاب المتصل، ويذكر لنا صديقه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار بعضا من شعره في هذا الشأن مثل قوله:[٣].

عجبت لعمري كيف مُدَّ فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا

١- انظر حافظ إبراهيم شاعر النيل/ د عبد الحميد سند الجندي ط دار المعارف ط ثالثة ص ١١، و ديوان حافظ إبراهيم ج٢ ص ١١٤ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢- ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ١١٦

٣- حافظ إبراهيم شاعر النيل/ د عبد الحميد سند الجندي ص ١٨

وللموت مالي قد أراه مباعدا وجلَّ مرادي أن أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلا وكنت السيد المفضالا

وهكذا نرى "حافظا " بعد خروجه من الجيش يلقى ألوانا من قسوة الحياة، وعاش معدما أكثر من عشر سنوات بعد عودته من السودان، إلى أن منَّ الله عليه وعين موظفا بدار الكتب المصرية، وقضى فيها ما يزيد على العشرين عاما تقلب فيها بين الأعمال، حتى عين رئيسا للقسم الأدبي.

خامسا : التكوين النفسي وشخصيته :

لاشك أن الأحداث الشداد التي ألمت بحافظ منذ صغره حتى وفاته كان لها أثر كبير وبليغ في نفسه مما جعله ناقما على الدنيا، ساخطا على مجتمعه، يكثر من شكوى الزمان وشكوى الناس، لكنه مع ذلك كان ذا قدرة فائقة على الفكاهة الحلوة، والنادرة المستملحة،فضحك من البؤس ومن الشقاء، ومن كل شيْ حوله،وكان له ذوق بارع في اختراع النكتة على ما يدور حوله فما يسمع حديثا،أو يعرض أمامه شيء حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق صدورهم، فكان في مجالسه موضع إعجابهم، ومنبع سرورهم، ومع ذلك فلا نكاد نرى لفكاهة الشاعر أثرا يذكر في شعره،وإنما هو جاد كل الجد، رزين كل الرزانة، بل كثيرًا ما نلمس في شعره من الحزن الدفين والألم المحض مالا يتصور في قائلة أن يكون مرحا فكها في حياته وقد فسَّر ذلك الأستاذ أحمد أمين في مقدمته للديوان بقوله :

"سبب ذلك أن الأديب في كثير من الأحيان تكون له شخصيتان أو أكثر، فلعله في حياته العامة شخصية خاصة، فإذا أراد أن يصوغ شعره أو نثره،انصب في قالب خاص وتقمص شخصية أخرى، ولو أتيح له أن يدخل كثيرا من فكاهته في شعره لربحنا من وراء ذلك الشيء الكثير."([1])

إلى جانب ذلك كان رجلا كريما واسع العطاء، ذاق طعم البؤس فعرف موقعه من الناس، فسخت كفه، وندیت راحته، حتى لكأنه لو ملك الدنيا كلها لبسط يده بها في يوم واحد.

كان حافظ رجلا حلو الشمائل نقي السريرة،موطأ الأكناف، يألف ويؤلف كان كما وصفه الأستاذ "إبراهيم عبد القادر المازني " كماء النبع الصافي الذي لم يمتزج بعد بتراب الأرض وأقذارها، وكانت شخصيته واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد يستطيع المرء أن يصل إلى أعمق أعماقها في غير عسر أو مشقة، ولهذا ألفه الناس وأحبته الأفئدة."([2])

كان حافظ رجلا اجتماعيا من الدرجة الأولى، لا تكاد تفتقده في مجالس العظماء والأدباء والعلماء، فإذا خلت منه هذه، فإنه هناك بين العامة في المقاهي والمتنزهات العامة، فالأدب يربطه بهؤلاء والمشاعر والآلام تربطه بأولئك.

وخلاصة القول أن شخصية حافظ وطبيعته تتمثل في أنها شخصية قلقة لا تستقر على حال هو غير منظم، ذو نفس حائرة لا تستطيع مواجهة الأخطار، ولم يكن بالرجل الجلد الذي يصمد لنوازل الزمان، ومع ذلك كان رحب الصدر يتقبل النقد كريما حلو الحديث مرحا فكها محبوب من الجميع.

١- ديوان حافظ إبراهيم المقدمة
٢- حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ٤٩: ٥٧

سادسا : نزعته الدينية وارتباطه بالشيخ الإمام "محمد عبده" :

كان "حافظ إبراهيم "معروفا بإعزازه للدين، وربما كان هذا هو السبب الأكبر في حبه للعرب، ولكل ما هوعربي، وكان لوطنه من حبه نصيب لا يقل عن حبه لدينه يقول عنه صديقه الأستاذ "أحمد محفوظ" : "كان حافظ ثابت العقيدة مؤمنا ثابت الدعامة، كان يقوم على الاعتماد على الله في حياته كراكب البحر أو كراكب الصحراء الذي يتوجه إلى الله دائما ليجنبه الغرق أو الضلال أو التيه. [1]

اتصل حافظ في بدايات حياته بالشيخ الإمام محمد عبده، ولازمه ملازمة كاملة، وكان يسافر معه إلى المدن المصرية حتى أصبح يسمى فتى الشيخ، وصار هذا من ألقابه. وكان الشيخ محمد عبده أهم شخصية دينية شغلت التاريخ المصري في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولم يبالغ الشيخ المراغي حين قال عنه : " اعتقد أننا إذا جاوزنا عصر السلف لا نجد رجلا رزق فهما في هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الإمام محمد عبده، ولقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها كما منحه التبصير في أمور الدنيا. [2]"

فلا عجب إذاً أن يعتز حافظ إبراهيم بالأستاذ الإمام،وأن يخلص له الود ويعترف له بالجميل، وأن ينظر إليه النظرة اللائقة عالما وإماما، ورائدا تقيا نقيا، مما حدا به أن يمدحه في أكثر من قصيدة، وأكثر من مناسبة، ولهذا أصيب الشاعر بالإحباط الشديد حين وافته المنية، فقد كانت وفاة الإمام كارثة هزت كيان الشاعر هزا عنيفا وظل يبكيه في كل مناسبة ويعدد مآثره وأفضاله في كل فرصة حتى لبى نداء ربه.

ولعل مما يلفت النظر في ديوان حافظ أنه أشار إلى عشرات الشخصيات الدينية، كالأنبياء، والرسل، والصحابة وغيرهم من الشخصيات التي لعبت دورا كبيرا على مسرح التاريخ الإسلامي والإنساني.

ولكن إذا استثنينا مطولة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لا نجد قصيدة متكاملة ولا مقطوعة في أي شخصية من تلك الشخصيات التاريخية التي تناولها، وإنما جاء حديثه عن تلك الشخوص حديثا عابرا لا يقصد من ورائه رسم بعد من أبعاد الشخصية أو تجسيد قيمة معينة، وإنما كان الهدف الأساسي هو تمجيد الممدوح أو المرثي بتشبيهه بشخصية من هذه الشخوص، من أمثال أبي بكر،وعثمان،وعلي،وعمرو بن العاص،وغيرهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

سابعا: ثقافته :

من الناحية التعليمية اكتفى حافظ إبراهيم بما درسه في المرحلة الابتدائية،والثانوية،وتلك الدراسة الفنية في المدرسة الحربية، وهذا بالطبع لا يرتقي به إلى مرتبة المثقفين، ولكنه حرص على أن يكمل ثقافته، وأن يوسع دائرة معارفه بطرق أخرى،وقد تعددت مصادر ثقافته وتنوعت وكان منها :

**** أنه قد أكثر من قراءة كتب الأدب،وأطال النظر فيها خاصة كتاب الأغاني الذي قرأه أكثر من مرة، كما أنه أطلع على دواوين الشعراء القدامى،وأطال النظر في كثير**

١- حياة حافظ / الأستاذ أحمد حافظ / مطابع الناشر العربي القاهرة / ص ٧٧

٢- صوت الإسلام في شعر حافظ / د جابر قميحه / ط دار الصحوة / ص ٢٦

منها،واستطاع أن يحفظ كثيرا من الأشعار المتميزة لشعراء متميزين كأمثال البحتري، وبشار، ومسلم بن الوليد، وأبي تمام، وأبي نواس وغيرهم. وساعده في ذلك حافظة قوية، وقدرة فائقة على الاحتفاظ بتلك الأشعار في ذاكرته، متمثلا ومتأثرا بها في أشعاره،وظهر هذا جليا في شعره.

ولكنه مع ذلك لم يعكف على دراسة منظمة، ولم يقرأ قراءة مستفيضة في عمق، ولم يرسم له خطة يلتزمها في الدراسة، بل كان كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة، ويرتشف هذه رشفة،ومن تلك رشفة، فهو يرضي ذوقه في أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة، فإذا عثر على أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه في نفسه، ولعل مما أعاقه عن القراءة المنظمة،أنه كان ملولا بطبعه، قليل الصبر، لا يستقر على حال، كما يدل على ذلك تاريخه وآراء من عاصروه. (١)

وكان من مصادر ثقافته المهمة التي أثرت في اتجاهاته الفنية تلك المجالس التي كان يرتادها، فقد عاشر "حافظ "أعلام الأدب واللغة والعلم والسياسة في عصره. فجالسهم ونادرهم، وأخذ عنهم وكان على رأسهم الإمام محمد عبده، وقد كان حافظ قوي الحافظة حاضر الذهن،مستقيم الطبع، فأصاب من صحبة أولئك العلماء وطول مذاكرته أنفس ما أصاب من ألوان المعرفة، لأن هذه المجالس كما يقول الدكتور أحمد أمين : " مدارس من أرقى المدارس،تطرح فيها المسائل العلمية، والمعضلات السياسية، والمشكلات الاجتماعية، وتعرض فيها الحلول المختلفة، وتبسط فيها أدواء الأمم وما إلى ذلك، وحسبك بمدارس كان المعلم فيها محمد عبده، وسعد زغلول، ومصطفى كامل." (٢).

ومما لا شك فيه أن حافظا قد جنى من هذه المجالس كلها فوائد جمة زادت من ثقافته ونمت معارفه، وكانت مادة دسمة صاغ منها كثيرا من أفكاره.

** كذلك اتصل حافظ بالصحف التي كانت موجودة في زمنه،وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين رجالها، وكان يتردد على دورها ويقضي مع أصحابها ومحرريها الساعات الطوال، فيتزود بمعارف مختلفة في السياسة والأدب والاجتماع، هذا إلى جانب ما كانت تمده به هذه الصحف من ثقافات مختلفة الطعوم والألوان، وكانت جميعا تفسح له صفحاتها وتشجعه وتدفعه نحو عالم الشهرة. (٣)

** كذلك تجاربه الواسعة التي اكتسبها من مخالطة الناس والاندماج معهم،لها أثر كبير في ثقافته واتجاهاته، ولعل حياته البائسة وما كان يعانيه من مشكلات أتاح له الاتصال بالناس على اختلاف طبقاتهم، فعرف الكثير عن ميولهم وأهوائهم،وأكسبته خبرة في الحياة. وظهر هذا جليا في أشعاره.

عمله في دار الكتب المصرية مكنه من الاطلاع والثقافة المتنوعة التي ظهرت في ثنايا شعره.

ولكن على الرغم من ذلك وجدنا "حافظا " لم ينل حظا وافرا كغيره من أدباء عصره من الثقافة الأجنبية، وقد عرض الأستاذ العقاد لمبلغ دراية حافظ باللغات الأجنبية وعبر عن

١- يظر حافظ إبراهيم شاعر النيل/ د عبد الحميد سند الجندي ص ٧٠،ومقدمة ديوان حافظ إبراهيم ج٢ ص ٧١،٧٢ (بتصرف)

٢- حافظ إبراهيم شاعر النيل / ص ٧١

٣- حافظ إبراهيم شاعر النيل / ص ٧٧

ذلك تعبيرا دقيقا فقال : " لا تجد بين العارفين باللغات الأجنبية أحدا أشبه منه بمن يجهلونها، ولا تجد بين جاهليها أحدا أشبه منه بمن يعرفها. " [1].

شاعريته :

وهب الله سبحانه وتعالى "حافظا" ملكة شعرية منذ نعومة أظفاره، ومنحه عاطفة قوية، ونفسا فنية سمت به عن أقرانه من نابتة عصره، من طلبة المدرسة الحربية التي التحق بها، وإلا فما الذي جعله وسط صليل السيوف والتدريب العسكري، يتجه نحو الشعر يطالعه ويتذوقه ويتخيره،وينظمه، وكان له في الشعراء السابقين من العصور الأدبية الزاهرة، وكذلك من محمود سامي البارودي الذي اتخذه قدوته ومثله الأعلى أسوة حسنة ومثال يقتدي به.فقد تخرج في المدرسة الحربية، وتعلم فنونها، وترقى في رتب الجيش، وخاض معارك القتال، وكان رب السيف والقلم، له دور في تأسيس النهضة الحديثة في الشعر، أعاد إليه بهجته ونضارته وقوته فاتخذه حافظ مثله الأعلى يحذو حذوه، ويختط نهجه ويأمل أن يبلغ في الحياة مبلغه [2].

لقد بزغ نجم "حافظا" بعد البارودي في زمن تألق فيه نجم شوقي، وصبري، وشكري، ومحرم، ومطران وغيرهم من فحول الشعراء في عصره، فدخل معهم الميدان وحاز قصب السبق والرهان.

فقد تعاونت الأحداث التي مر في حياته في صهر موهبته وشاعريته، فصار له نهجه وأسلوبه في نظم الشعر، وصار شعره يتجاوب مع حياته في التلقائية والنفور من التكلف، وقد اجتمع لحافظ من متخير الفظ والكلام شعرا ونثرا ما لم يجتمع إلا للقليل، فكان يرصد الحوادث الاجتماعية والسياسية كما يرصدها رجال مصر على اختلاف مناحيهم، فيصوغها الصحفيون الوطنيون مقالات حارة قوية، ويصوغها القادة وأولو الرأي أفكارا ينادون بها في مجلس الشورى أو الجمعية العمومية،... ويصوغها حافظ شعرا قويا يغذي نفوس الشباب، ويلهب شعور من سمعه. [3]

نظم حافظ إبراهيم في أغلب الأغراض الشعرية القديمة والجديدة، وكان شعره يمتاز بديباجته التي تتمثل في جزالة الألفاظ، وصناعته الشبيهة بصناعة البحتري، وأبي تمام، محافظا على عمودية القصيدة وصياغتها القديمة. يقول صديقه " عبد العزيز البشري "في مرآته : " أن شعره مشرق الديباجة جزل اللفظ، صافي القول، محكم النسج،رصين القافية ترى معناه في ظاهر لفظه، فإذا أقبل عليك ينشدك من

شعره انصرف البيت يستشرف وحدة القافية استشرافا حتى لتقبض عليه بذهنك قبل أن ينطق بها."[4]

١- مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي / عباس محمود العقاد / ط نهضة مصر / ص ١٧

٢- مقدمة ديوان حافظ / ص ٧٣

٣- السابق بتصرف ص ٨٥

٤- حافظ إبراهيم شاعر النيل / ص ١١٧

الفصل الثاني
قراءة في القصيدة العمرية
المحاور الرئيسة للقصيدة العمرية

تمهيد :

القصيدة العمرية هي إحدى قصائد "حافظ إبراهيم"، وهي أطول قصيدة نظمها في حياته إذ بلغت مائة وسبعة وثمانين بيتا على وزن واحد وقافية واحدة، تناول فيها بعض الجوانب الهامة في حياة سيدنا عمر بن الخطاب – ـ رضي الله عنه ـ–،وشخصية عمر بن الخطاب من الشخصيات المثالية الفريدة في تاريخ الإسلام بل البشرية كلها،ولهذا حظي ـ رضي الله عنه ـبنصيب كبير من اهتمام المفكرين والأدباء فكتبوا وأفاضوا في الحديث عنه،وكان على رأسهم في العصر الحديث الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه " عبقرية عمر".

أما حافظ إبراهيم فقد أهتم بشخصية عمر بن الخطاب اهتماما كبيرا، فجعله القدوة والمثل الأعلى الذي يشبه به الأمراء والزعماء والعظماء في مدائحه وفي مراثيه فنراه مثلا حين يرثى الإمام محمد عبده يشبهه كأنه عمر في زمانه، وفاروق عصره فيقول:[1]

رأيت فيه بساطا جل ناسجه عليه فاروق هذا الوقت يختال

ويقول في موضع آخر :

وتفانيك في سبيل أبي خف ص ومسعاك عند دفع المصاب

فالشاعر هنا يشبه الإمام " محمد عبده بالفاروق في استماتته في نصرة الحق، ونصرة المظلوم وهو ـ رضي الله عنه ـ في نظره رمز في أسمى صوره وأرقى مراتبه فنراه مثلا حين يهنئ الملك الإنجليزي العادل ادوارد السابع ١٨٤١ ١٩١٠م،بعد تتويجه فيقول : إذا كان الناس يرون فيك مثال للعدل، وحين يذكر العدل يذكرونك،فهذا يذكرنا بعدل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـوكأنك تسلك سبيله وتسير على طريقه يقول : [2]

هم يذكرونك إن عدُّوا عُدولَهم ونحن نذكر أن عَدُّوا لنا عمرا

كأنما أنت تجري في طريقته عدلا وحلما وإيقاعا بمن أشِرا

وأبلغ من ذلك وأدل على شخصية الفاروق وغضبته للحق وللرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ، ما ساقه حافظ في مقام رثائه لمصطفى كامل سنة ١٩٠٨م حين قال : [3]

قد كنت تغضب للكنانة كلما حمت وهم رجاؤها بعثار

غضب التقى لربه وكتابه أو غضبه الفاروق للمختار

ولاشك أن هذا يدل على شدة تعلق حافظ وحبه لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ولهذا لم يكتف بهذه المعاني الجزئية والإشارة إلى عمر بالبيت والبيتين على النحو التقليدي فأفرد له مطولة ضمنها جوانب متعددة من حياة الفاروق ـ رضي الله عنه ـنظمها سنة ١٩١٨م ونالت شهرة فائقة دعت كثيرا من الشعراء إلى محاكاتها، مثل الشاعر عبد الحليم

١ـ ديوان حافظ إبراهيم / ج ١ ص ٦

٢ـ السابق ص ٢٠

٣ـ حياة حافظ إبراهيم / أحمد محفوظ / ص ٢١٨

المصري في قصيدته التي نظمها في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، وكذلك نظم الشيخ عبد المطلب قصيدة طويلة في على بن أبي طالب - رضي الله عنه -،ونظم غيرهما في هذا الصدد قصائد أخرى في أبطال قدماء ومعاصرين.

وأما لماذا اختار حافظ إبراهيم شخصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -بالذات لتكون موضوعا لقصيدته الطويلة، وما الباعث أو الدافع لنظم هذه القصيدة فالجواب في نظري يرجع إلى عدة أسباب منها :

** إعجاب حافظ الشديد بشخصية عمر - رضي الله عنه -فعمر يمثل أولا الخليفة العادل الذي لا يظلم رعيته ويعد نفسه مسئولا عن جميع الرعية، بل أنه يمد ساحة اهتمامه ومسؤوليته إلى عالم الحيوان، حين يعتب نفسه مسئولا عن بغلة تعثرت في بلاد العراق، وعمر - رضي الله عنه -يمثل ثانيا القدوة المثلى لجميع الولاة ولجميع أفراد رعيته ولمن بعدهم في المساواة، وفي غيرها من أمور الحياة،فهو لم يقتصر تطبيق المساواة بين المسلمين،بل أيضا بين المسلمين وغير المسلمين،فأعطى للعالم الصورة السمحة لهذا الدين في معاملة الناس أجمعين، وفي المساواة بين الجميع.

إن حياة البؤس والشقاء والفقر والظلم والمعاناة التي عاشها حافظ في حياته، هي التي ألجأته إلى استحضار شخصية الفاروق عمر - رضي الله عنه -لأنه وجد متنفسه وراحته الكبرى فيها، إذ كان عمر مثالا للإنصاف والشفقة والرحمة والعدل،ينتصر للضعفاء والمظلومين، إذ عرف عنه - رضي الله عنه -أنه كان لطيفا في معاملة الضعفاء، محسنا إليهم، رحيما بهم،وكانت صفة الرحمة في عمر توازي صفة عدله ويعبر الشاعر عن هذا في قصيدته بقوله: [1]

كم خفت فى الله مضعوفا دعاك به وكم أخفت قويا ينثنى تيها
وفي حديث فتى غسان موعظة لكل ذي نعرة يأبى تناسيها
فما القوي قويا رغم عزته عند الخصومة "والفاروق" قاضيها
وما الضعيف ضعيفا بعد حجته وإن تخاصم واليها وراعيها

النزعة الدينية وارتباطه بالشيخ الإمام "محمد عبده" الذي أوحى لشاعرنا بذلك الفيض الزاخر من الشعور الديني، تمده عاطفة دينية عميقة، وحب قوي للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام خاصة شخصية عمر - رضي الله عنه -، دفعه ذلك إلى إطلاق هذا المد المتدفق من الأحاسيس والمشاعر، التي تتوقد غيرة على الإسلام والمسلمين، وترى فيه المنقذ للشرق من وهدته، المبرئ له من أسقامه، ولاسيما أن شخصية - رضي الله عنه -ثرية بالمواهب والفضائل،والمواقف والمشاعر الإنسانية النبيلة، فالكشف عنها والتنبيه إلى خصائص العظمة والعبقرية فيها،يعود بلا شك بالفائدة الجليلة على الأمة العربية، ويوجهها إلى الطريق الصحيح.

** ما كانت تعانيه الأمة العربية وخاصة مصر من تخاذل وهوان، ووهن وهزيمة،وأحوال تتسم باليأس والخطر، إذ كانت تتعرض للظلم والاضطهاد على يد الاستعمار الجاثم فوق أرضيها وعمر

- رضي الله عنه -شخصية تمثل صورة الحاكم المسلم المنتصر،الذي حقق أكثر من انتصار في أكثر من مواجهة.

١- ديوان حافظ إبراهيم / ج ١ ص ٨١/٨٢

لهذا أراد "حافظ " أن يهدى إلى الأمة العربية صورة رائعة لتلك الشخصية البارزة في تاريخ العرب والمسلمين،تكون قدوة ومثالا يحتذي به ناشئة الأمة لعلهم يعملون عملا جادا يساعد على استرداد عظمة الأمة الإسلامية ومجدها التليد.

لقد كان الفاروق – - رضي الله عنه -– شخصية قوية تثير الإعجاب في نفس الشاعر،فهو يمثل الجانب الإنساني الذي يتجاوز حدود الوطن والقومية إلى الدوائر العالمية.

لقد رأى حافظ أن الملامح العمرية رمز للعدل والحرية،والحق والكرامة، والمساواة والشجاعة، والقوة والمهابة، لهذا أراد أن يساهم في التعريف بتلك الشخصية الفذة، فالكشف عن عظمة عمر وقوته مع عدله ورحمته التي تتيح للأمة مجالا جديدا وجهادا جديدا، بما يرى الناس فيه من قوة لا يشوبها الغرور، وعدل لا ينحرف إلى الجور، ورحمة لا تنشأ من الشعور بالضعف أو الخوف.

فشخصية عمر - رضي الله عنه -في نظر حافظ تمثل طوق النجاة للشعب المصري وللآمة العربية جمعاء،ولهذا كانت القصيدة العمرية من أنجح الأوعية الشعرية التي تحدث فيها حافظ عن الصورة المثلى للحاكم وعلاقته بالرعية،وركز فيها على مسألة الشورى والعدل الاجتماعي،وأهمية الرأي الآخر في تقويم المسيرة الاجتماعية وانتظامها.

وعمر - رضي الله عنه -قبل ذلك وبعده صورة للحاكم النقي التقي الطاهر، الورع الزاهد الذي يرجو رحمة ربه ويعمل لآخرته قبل دنياه. وعلى كال حال فإن حافظ من خلال العمرية قال كل ما يمكن أن نعتبره إجابة على السؤال الذي طرح لماذا أختار حافظ شخصية عمر بالذات ليروي سيرتها؟

فبعد أن صال وجال في حياة عمر - رضي الله عنه -– ختم قصيدته بأبيات لعلها أجابت على سؤالنا ووضحت الدافع وراء نظمه العمرية،وهو دافع تربوي أخلاقي يتمثل في أمله أن يكون مثلا أعلا للمجتمع، ولاسيما الشباب بحيث يتأثرون بمناقبه، ويتخذون من هذا الماضي المضيء منطلقا لحياة طيبة كريمة في الحاضر والمستقبل. يقول: [1]

هذه مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها
في كل واحدة منهن نابلة من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل في أمة الإسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما سادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيا
وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عين غافيها

قسم "حافظ " العمرية إلى محاور رئيسة مختلفة الطول والقصر تبعا للمواقف والمشاهد، كل محور يدور حول فكرة،أو مرحلة،أو واقعة في حياة عمر - رضي الله عنه - وأعطى لكل قسم عنوانه الدال عليه على الترتيب الأتي :

١-مقتل عمر ٢-إسلام عمر ٣-عمر وبيعة أبي بكر ٤-عمر وعلي
٥-عمر وجبلة بن الأيهم ٦-عمر وأبو سفيان ٧-عمر وولده عبد الله
٨-عمر ونصر بن حجاج ٩-عمر ورسول كسرى ١٠-عمر والشورى
١١-مثال من زهده ١٢-مثال من رحمته
١٣-مثال من تقشفه وورعه ١٤-مثال من هيبته

١- ديوان حافظ إبراهيم / ج ١ ص ٨٢/٨١

١٥- مثال من رجوعه إلى الحق ١٦-عمر وشجرة الرضوان ١٧-الخاتمة

من الواضح من خلال هذا العرض للمحاور أن الشاعر لم يراع الترتيب التاريخي للأحداث، ولم يعمد إلى خلق ترابط بين الأحداث، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة القصيدة العمودية الطويلة التي كثيرا لا تحفل بصور الترابط. ولعل هذا التقسيم يرجع إلى أمور منها :

أن يكون حافظ إبراهيم قد وضع تلك العناوين لتمثل المحتوى الفكري، أو لتوجز المحتوى الفكري في عنوان رامز له، أو أن يكون محقق ديوانه وطابعه هو الذي تناول هذا الجانب وقسم القصيدة إلى تلك الأقسام،وربما كان تألفيها قد جاء في أوقات متفاوتة، فلما جاء الجمع أغفل الأساس الذي ينبغي أن يتم فيه العرض، فجاءت على هذا النحو.

ومهما يكن من شأن فإن الشاعر في عرضه كان له تصور دقيق فيما يتحدث فيه من مضامين أو محاور فكرية وفق فيها كل التوفيق.

مقدمة العمرية:

استهل" حافظ إبراهيم"مطولته بدعاء إلى الله أن يهبه قدرة البيان، وسرىّ المعاني،وفصيح القول، ما يمكنه من قضاء حق عليه لم يف به أحد، وهو نظم سيرة الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -وهذا الاستهلال يعد كمقدمة للقصيدة وفيها يقول [1]:

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها أني إلى ساحة الفاروق أهديها
لا هم هب لي بيانا أستعين به على قضاء حقوق نام قاضيها
فقد نازعتنى نفسي أن أوفيها وليس في طوق مثلي أن يوفيها
فمر سرى المعاني أن يواتينى فيها فإني ضعيف الحال واهيها

فحين تقرأ مطلع القصيدة تشعر بأن"حافظا" قد أقدم على هذا المجهود الطيب وهو هيَّاب وَجِل، لضخامة الموضوع،وعظمة الشخصية وجلالها، وربما كان التهيب كذلك لجدة هذا اللون من الشعر على كاتبه.ولهذا جاء التقديم بقوله " إلى ساحة الفاروق " إيذانا بأنها موجهة إلى من هو جدير بها فكلمة "الفاروق" تعطينا انطباعا تلقائيا بالمضمون الذي يلح على ذهن حافظ بينما يتقدم إلى ساحة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -إذ المضمون يدور حول عملية التفريق بين الحق والباطل،والصواب والخطأ، ولعل في استخدامه لكلمات "قضاء، حقوق، قاضيها " في البيت الثاني و" أوفيها، يوفيها " في البيت الثالث ما يؤكد هذا المضمون.

ثم إن الأسلوب الخبري في قوله " قد نازعتنى " يفيد التأكيد، زاد من ترسيخه استخدام "قد" فالتعبير بنازعتنى على صيغة المفاعلة للإيحاء بأن الدوافع النفسية كانت تنازعه، وكان فيها بين مُقْدم ومحجم لجلالة المهمة التي يقوم بها، فالحديث عن عمر - رضي الله عنه -أمر صعب، لهذا نراه يستعين بالله سبحانه وتعالى على قضاء هذا الحق الذي هو أولى بالقضاء، ولذلك طلب الاستعانة بالقدرة البيانية " فمر سرى المعاني يواتينى" لأن المجال يحتاج لتلك القدرة.

ثم إن "الفاء" واقعة في جواب شرط مقدر تقديره " إذا كان ذلك ليس في طوقي فلاشيء غير الاستعانة بالدعاء ".

فهو يطلب من الله أن يطوع له المعاني الشريفة لتواتي شاعرا متواضعا لا يقدر على هذا المجال، وهنا نلمح نوعا من التواضع، وفيه مع ذلك إيحاء بإعلاء شأن عمر - رضي الله عنه -، ولكي يوحى بجسامة ما هو مقدم عليه جاء بالخبر المنفي " ليس في طوق مثلي أن يوفيها " ثم الخبر التقريري، أو التعليل "فإني ضعيف الحال واهيها "،ولاشك في أن هذه المقابلة المعنوية بين جسامة الموضوع الذي يلجه وضعف الحال الواهية، ترسيخ لما يستهدفه من بيان أنه أمام أمر صعب،كمن يلج ميدانا ولا عدة له، ولعل الإشارة بقوله " نام قاضيها " توحي بغفلة الكثيرين عبر التاريخ الشعري عن قضاء حق كان يجب أن يؤدى تجاه عمر - رضي الله عنه-.

محاور القصيدة:

أولا : مقتل عمر - رضي الله عنه - :

١- ديوان حافظ إبراهيم / ج ١ ص ٧٧

إن فكرة العدالة بمعناها الشامل، التي كان يمثلها عمر - رضي الله عنه -خير تمثيل قد تحطمت على يد "أبي لؤلؤة المجوسي" لعنه الله حين اغتال عمر - رضي الله عنه -ولهذا افتتح حافظ قصيدته بعد هذا التقديم بمقتل عمر لينبه شعور القارئ ويثير في نفسه الشعور بفداحة الفجيعة بمقتله، ويلفت النظر إلى الأثر البعيد الذي تركه هذا الحادث لأول نهضة للإسلام وقيام دولته،وليس هذا فحسب بل امتد ليشمل دولة الإسلام كلها. فالطعنة التي وجهت إلى عمر - رضي الله عنه - عنه ليست انتقاما منه في ذاته فحسب بل هي إلى الإسلام كله يقول: [1]

مولى المغيرة لا جادتك غادية ... من رحمة الله ما جادت غواديها
مزقت منه أديما حشوه همم ... في ذمة الله عاليها وماضيها
طعنت خاصرة الفاروق منتقما ... من الحنيفة في أعلى مجاليها
فأصبحت دولة الإسلام حائرة ... تشكو الوجيعة لما مات آسيها
مضى وخلَّفها كالطود راسخة ... وزان بالعدل والتقوى مغانيها

يقول الأستاذ أحمد محفوظ : "إن حافظ إبراهيم قد بدأ العمرية بداية غير موفقة فقد قتل الرجل قبل أن يجلوه للقراء. "[2]

ولكن يرى د جابر قميحه : "أن حافظا استخدم في هذه العمرية ما يسمى في الأدب الروائي ب (flashback) " الفلاش باك "ويعنى استحضار الماضي أو الرجوع إلى الماضي وإلقاء الضوء عليه، فهو قد بدأ مطولته بأخر مشهد من مشاهد الحياة العمرية،وهو مشهد مقتل عمر ثم بدأ يستحضر الحياة العمرية بادئا بإسلام عمر مثنيا بموقفه من السقيفة..... منتقيا بعد ذلك من الحياة العمرية وقائع تنم عن شمائله في القوة والحزم والعدل والرحمة دون أن يلتزم فيها بالترتيب التاريخ." [3]

ولكن يبدو لي أيضًا أن "حافظا" كان متأثرا إلى حد كبير بأسلوب القرآن الكريم في هذا الصدد فعند نظمه للقصيدة استحضر ثقافته الإسلامية فحاكاها، فالمتأمل لبعض القصص القرآني يجد أنه بدأ الأحداث بنهايتها ثم سرد أحداثها في ترتيب منطقي وفي تسلسل، كما جاء مثلا في قصة " أصحاب الجنة " وغيرها من القصص القرآني. [4]

بدأ الشاعر هذه الأبيات مخاطبا " أبا لؤلؤة " صابا عليه جام غضبه وسخطه ولعناته، مصورا فعلته النكراء وآثارها على الإسلام والمسلمين، لهذا بدأ أبياته بالدعاء عليه بألا تنزل عليه رحمة الله، وحذف النداء هنا سببه الازدراء والغضب منه.

ومن المعروف أنه حين يكون حنو الإنسان ومودته وعاطفته فهو يدعو بالسقي، وحين ينقلب الأمر يكون الدعاء بعدم السقيا، والسقيا هنا مجازية وهي " غادية من رحمة الله " والدعاء بالسقي وعدمها تأثر بالاتجاه العربي القديم، فالدعاء بالسقي وغيره ما هو إلا من أثر الثقافة وأصدائها في نفس الشاعر، وانعكاسات آثارها على مرآة شعوره وإحساسه.

١- ديوان حافظ إبراهيم / ج ١ ص ٧٨

٢- حياة حافظ إبراهيم / أحمد محفوظ / ص ٢١٧
٣- صوت الإسلام في شعرحافظ / د جابر قميحه / ص ٩٠
٤- سورة القلم من أية ١٧ : ٢٠

ثم بين بعد ذلك مدى الأسى والحزن بل، والحسرة والفجيعة التي أصابت الأمة الإسلامية "الحنيفة " لموت خليفة المسلمين، وقد استطاع الشاعر أن يصور ذلك في أسلوب جميل صادق معبر، فالأسلوب الخبري في كلمة "مزَّقت " جاء لإظهار الأسى والحزن، كما أنها توحي بقسوة الطعنة الغادرة التي أصابت " الفاروق" فتسببت في قتله، كذلك جاء ذكر الخاصرة لتدل على موضع الطعنة، وتوحي بشدة الطعن وضراوة الألم، والشاعر أعلى من شأن الفاروق حين بين أن الطعنة ليست انتقاما منه في ذاته فحسب بل هي موجهة إلى الإسلام كله.

ثم بدأ البيت التالي بالفاء " فأصبحت " للإشارة إلى أن الحيرة التي أصابت المسلمين مترتبة على هذا الحادث المشئوم، ثم نسبة الحيرة إلى الدولة كلها إشارة إلى عموم الفجيعة، وقد جمع إلى الحيرة شكوى الوجيعة وربطها "بلما " الحينية وما بعدها كأنما كانت الشكوى والوجيعة حين فقدت الدولة طبيبها المداوي.

والبيت في جملته أسلوب خبري فيه تعبير عن الحزن والألم. ولعل التعبير بلفظة "مضى " ما يعطي شحنة من الشجن الحزين دعمه الفعل "خلَّفها "، ولا يخفى ذلك التشبيه التراثي في قوله " خلَّفها كالطود شامخة " كذلك الصورة الاستعارية التي تمثلت في العدل والتقوى تزدان به هذه الدولة في عهده.

ثم تأتي الأبيات بعد هذا الموقف لتؤكد ظاهرة الرسوخ الذي تحدث عنه في نهاية الأبيات، فبين أن عمر ـ رضي الله عنه ـترك الدولة الإسلامية وهي قوية راسخة فتية، لن تنال منها أي قوة تحاول هدمها يقول : [1]

تنبو المعاول عنها وهي قائمة والهادمون كثير في نواحيها
حتى إذا ما تولاها مهدمها صاح الزوال بها فاندكّ عاليها
واهاً على دولة بالأمس قد ملأت جوانب الشرق رغدا من أياديها
كم ظللتها وحاطتها بأجنحة عن أعين الدهر قد كانت تواريها
من العناية قد ريشت قوادمها ومن صميم التقى ريشت خوافيها

فالأبيات هنا تركز على عظمة ما قدمه الفاروق ـ رضي الله عنه ـمن عزة وقوة ومنعة وشموخ للدولة الإسلامية الناشئة. فالتعبير بقوله: "تنبو المعاول " إيحاء لفظي يبرز لنا الدولة الإسلامية في رسوخها وتمنعها لا تنال منها معاول الهدم مهما كثرت من حولها، ويؤكد على صلابتها وقوتها التي استمدتها من قوة الفاروق وسياسته وعدله.

كما أن الجملة الحالية "وهي قائمة " توحي بعزة هذه الدولة وشموخها فوق رسوخها. كذلك جمعه لكلمة "الهادمون " إشارة منه إلى كثرة أعداء الدين والأمة الإسلامية ومحاولاتهم المستمرة في النيل منها. ثم جاء ب "حتى " التي تفيد الغاية في بداية البيت الثاني لتوحي بأنها ظلت قائمة حتى تولاها مهدمها ويقصد بهم بعض الموالي ويمثلهم هذا المجوسي لعنة الله عليه .

ونقف أمام هذا التصوير في الشطر الثاني في قوله: " صاح الزوال بها فاندك " فنرى الزوال نذير شؤم يصيح منذرا عن بنيان راسخ بدأ يتهدم، وتوحي كلمة "اندكَّ"

---

١ - ديوان حافظ ج١ ص ٧٨

وقبلها "الفاء" بسرعة هذا الهدم وحِدَّته، واختار الهدم في العالي إشارة منه إلى أن الهدم قد أصاب منه بعض قيمها التي كانت سر رسوخها.

ثم تأتي تلك الصرخة الحزينة في "واهاً "على دولة الإسلام " لتعلن الحزن والأسى على ضعف وزوال دولة كانت شامخة عاتية لها تاريخها المجيد الحافل، ولعله في ذلك يشير إلى ما آلت إليه دولة الإسلام والخلافة الإسلامية في العصور المتعاقبة .

أما قوله : "قد ملأت " إشارة إلى ما قدمته هذه الدولة إلى البشرية من الرقي وهناء العيش في مشرقنا العربي والإسلامي، " فكم" في أول البيت تدل على الكثرة. ونقف أيضا أمام صورة جميلة، صورة أنثى الطائر في حنوها تحوط صغارها بأجنحتها حنو العطف في حدب لتحفظها من أحداث الزمن هكذا صور عمر في حنوه على أمته. وكذاك في صورة "أعين الدهر" تشخيص استعاري بديع يعطي امتدادا أكثر للصورة فيتمثلها المتلقي في ذهنه.

وهذا البيت يتصل بما قبله اتصالا وثيقا، فالضمير "ظللها" راجع إلى الدولة. ولعل في هذا التحسر المفجع على دولة ألإسلام وزوالها، مبرارته وأسبابه لدى حافظ إبراهيم،ويدخل بنا إلى صميم مسألة قد تثير شيئا من البلبلة أو الشك حول تصوره لموقف المسلمين من غير العرب، فحافظ يرى أن الموالى" وهم من المسلمين غير العرب سبب الانهيار الذي هدم الدولة الإسلامية الكبرى فيما بعد، وأن العرب لو بقيت لهم قيادة الدولة وتصريف أمورها لما جرى ما جرى ويستشهد حافظ بما قاله عمر ـ رضي الله عنه ـقُبيل أن تفيض روحه إلى بارئها،بأن للموالى أطماعا خفية وعلى العرب أن يحذروهم، وألا يكثروا منهم، وألا يستهينوا بضعفهم، فهذا الضعف هو مصدر قوتهم [1]، ومن هنا قد توجه إلى حافظ تهمة " الشعوبية " والتعصب للعرب على حساب القوميات الأخرى وهو ما يتعارض مع مفهوم الإسلام للإخوة الإسلامية، والحق أن "حافظا" كان في تصوره وفياً لما قاله عمر ـ رضي الله عنه ـأولا،ولأحداث التاريخ ثانيا، دون أن ينطلق من تصور أو مفهوم شعوبي أو معاد لغير العرب فمن المستحيل اتهام عمر بأنه معاد لمسلم غير عربي، وتاريخ عمر ـ رضي الله عنه ـيفيض رحمة وحنانا وسماحة مع غير العرب من المسلمين بل مع غير المسلمين من أصحاب الملل والمذاهب الأخرى، ولولا هذا ما تعرض للاغتيال.

على يد " أبى لؤلؤة المجوسي " لعنه الله وهو من الموالى الفرس والمقصود هنا بوجه عام هو التحذير من أولئك الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر، متربصين بالإسلام والمسلمين، ومتحينين الفرص لتحقيق مطامعهم وأغراضهم الشعوبية الضيقة البغيضة، وما فعله "أبو لؤلؤة " كان تطبيقا عمليا لتفكير الشعوبيين الذين رفضوا هدى الإسلام واستسلموا للأحقاد القومية، ثم أن أحداث التاريخ أثبتت أن هؤلاء الشعوبيين ممن يبطنون عداء للإسلام قد تسببوا فيما بعد في تصديع أركان الدولة الإسلامية. ويظهر ذلك جليا في عصر الدولة العباسية، حين تناوب الموالى من الفرس والأتراك السيطرة على مقدرات الخلافة فتمزقت الدولة، وهذا لا ينفى أن هناك مسلمين من غير العرب، ومن الفرس

١- ينظر تاب الكامل في التاريخ / عز الدين أبي الحسن بن الأثير م صحح أصوله عبد الوهاب النجارج٣

والأتراك أنفسهم قد قدموا خدمات جليلة للإسلام والمسلمين لأنهم أخلصوا إسلامهم، وتخلوا عن التفكير الشعوبي والإقليمي الضيق."[1].

ولعلنا بعد ذلك نتجاوز ما قد يثار حول هذه الأبيات وحول حافظ.

يقول مصورا ذلك : [2]

والله ما غالها قدما وكاد لها واجتثت دوحتها إلا مواليها
لوأنها في صميم العرب قد بقيت لما نعاها على الأيام ناعيها
يا ليتهم سمعوا ما قاله (عمر) والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فإن لهم مطامعًا بسمات الضعف تخفيها

انظر إلى البيت الأول من هذه المقطوعة تلمح فيه الاتجاه القومي أو الوطني عند حافظ، ولعل القسم في أول البيت "والله" مع أسلوب الاستثناء في آخره،يدلان دلالة واضحة على أن نكبة الدولة الإسلامية،وقتل عمر - رضي الله عنه -وسقوط دولة بني أمية،وإضعاف الدولة العباسية حتى سقوطها،كان بسبب الاستكثار من "الموالى ".فهم السبب المباشر في تلك الأحداث،كذلك اختياره للفظة "اجتثت" دون غيرها لتوحي بأنها اقتلعتها من جذورها فهي من الكلمات ذات الدلالة اللغوية التي تعطي صورة للدولة وكأنها قد ماتت، فهي في الدلالة غير كلمة "قطعت " مثلا وهي الكلمات القرآنية.

لهذا ينصح الشاعر الأمة الإسلامية باختيار من يقودها ويدافع عن مصالحها ويحافظ عليها، ولن يكون ذلك إلا إذا كان قائد عربي خالص العروبة، يعتز بدينه وبعروبته. لذلك نسمع منه هذا التمني المشبوب بالحسرة والندم، فليت القادة والخلفاء استجابوا لوصية "عمر" حين شارف على الموت، وبلغت روحه التراقي بألا يستكثروا من الموالي في شؤون حياتهم خاصة المناصب.

" فقد كان عمر - رضي الله عنه -لا يطمئن إلى كثرة الأعاجم في المدينة، حتى أنه أمر ألا يتشبه العرب بزيهم وعاداتهم، وأمر ألا يُؤذن لسبي قد احتلم أن يدخل المدينة....."[3]

وهذه الأبيات التي بين يدينا تدل على ثقافة الشاعر الدينية، وتأثره بأسلوب القرآن الكريم ومعانيه، ويتجلى ذلك في اقتباسه وتضمينه لبعض ألفاظ القرآن من مثل " اجتثت "، " التراقي "، كما أن أسلوب التمني ذكر كثيرا في القرآن الكريم خاصة في مواقف المناجاة النفسية، وفي مواقف الدهشة والعجب.....وغيرها.

ثم انظر إلى هذا التعبير الدقيق في قوله :

لا تكثروا من مواليكم فإن لهم مطامعا بسمات الضعف تخفيها

فهو تعبير مغلف يوحي بما تنطوي عليه النفوس من التظاهر بالاستكانة والضعف،والبسمة الصفراء التي تُخفي ما وراءها من مطامع و أحقاد ، فالنهي هنا أسلوب

١- العمرية مقال للدكتور/ محمد حلمي قاعود / مجلة الدعوة / العدد ٩٤٩ / ١٩٨٤م ص ٣٩.
٢- ديوان حافظ ص ٧٨،٧٩

٣- العمرية مقال للدكتور/ محمد حلمي قاعود / مجلة الدعوة / ص٣٩.

ترشيدي، ثم جاء " بلا " الناهية بعد هذا التمني لتكون سدا منيعا لهم،مبينا بأن هناك مطامع خفية، لهذا جاء بها نكرة، ولكنها نكرة موصوفة تخفيها بسمات الضعف، فكأنه خصهم بهذه الصفة النكراء دون غيرهم، فالجملة فيها تقديم وأصلها " تخفيها بسمات الضعف "، ولعله جاء بالتقديم هنا لترسيخ وتقوية المعنى في ذهن المتلقي.

ولعل المقصود هنا بوجه عام هو التحذير من أولئك الين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر فهم دائما متربصين بالإسلام والمسلمين، يتحينون الفرصة لتحقيق مطامعهم وأغراضهم الشعوبية.

" ومهما يكن من شيء، فإن الفكرة ترمز إلى الذين يمثلون الفكر الشعوبي الضيق، هم سبب مصيبة المسلمين في كل العصور، وخاصة في عصرنا الحديث الذي يعيشه المسلمون بالعناء والفرقة، وشهدوا فيه سقوط الخلافة الإسلامية، وإلحاح الغرب الصليبي على عملية تمزيق المسلمين بكل الوسائل، عسكريا وسياسيا وثقافيا.إن " حافظا " في تصوره لوصية عمر - رضي الله عنه - كان يدرك جيدا أن الدخلاء على الإسلام كانوا السبب المباشر قديما وحديثا في تقهقر المسلمين وتخلفهم، ولذا أثار القضية من جديد ممثلة " الشعوبية " التي نفذ أغراضها قديما " أبو لؤلؤة المجوسي " دون أن يقصد تلك النظرة الضيقة التي يعرف بها الشعوبيون المعاصرون ومن على شاكلتهم." [1]

إسلام عمر - رضي الله عنه - : " وإذا كانت مطولة "حافظ " قد بدأت بما يمكن تسميته نهاية عمر - رضي الله عنه -أو خاتمة حياته، ليثير من خلالها الاهتمام ويشد انتباه المتلقي، فإنه يعود ليلتقط لنا بعض الحوادث التاريخية الدالة على شخصية عمر" - رضي الله عنه - وذلك من خلال إبراز المناقب والملامح الشخصية، والنفسية، والروحية،لشخصيته - رضي الله عنه - فتحدث عن إسلامه وعدله، ورحمته، وتواضعه،وزهده، وتقشفه وورعه..... الخ.

بدأ الشاعر أبياته عن إسلام عمر - رضي الله عنه -ذاكرا فطنته وقوة بصيرته،وآرائه السديدة المصيبة في مسائل ومواقف عديدة،وقد نزل فيها آيات على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - توافق هذه الآراء وتدعمها،ثم بين كيف تحول هذا الرجل المعادي للإسلام، بل الخصم الألد والعنيد للرسول وللمسلمين،إلى قوة دفاع وحصن منيع يحميهم ويكون سببا في إعلاء كلمة الدين يقول: [2]

رأيت في الدين آراء موفقة فأنزل الله قرآنا يزكيها
وكنت أول من قرَّت بصحبته عين الحنيفة واجتازت أمانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها بنعمة الله حصنا من أعاديها

فالشاعر في البيت الأول يبين أن عمرا - رضي الله عنه -كانت له آراء سديدة وموافقات كثيرة، فقد منحه الله سبحانه إلهاما وتوفيقا، وبصيرة نافذة، حتى جاءت كثير من آرائه متوافقة مع الوحي. بل ونزلت آيات عديدة تؤكد هذه الآراء وتعززها.

ثم بين الشاعر في البيت الثاني موقف عمر - رضي الله عنه -من الإسلام، وكيف كان بمثابة الأمن والأمان للحنفية بإسلامه، وفي البيت كناية عن العزة والاستقرار والأمن

١- ديوان حافظ ص ٧٨،٧٩
٢- ديوان حافظ ص ٧٩

التي أحاط بالأمة الإسلامية بإسلامه - رضي الله عنه - وأيدته تلك الاستعارة التي في قوله :" عين الحنيفة واجتازت أمانيها ".

لقد تحقق حلم الرسول- صلى الله عليه وسلم - واستجاب الله لدعائه حين قال:"اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام أبو جهل."[1].

فأعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وصارت الدعوة إلى الإسلام جهرا بعد أن كانت سرا، بفضل عمر وشجاعته وقوته وجرأته.

أما البيت الثالث فنلمح فيه تلك المقابلة الطريفة بين حال عمر قبل الإسلام، وحاله بعده، فهذا الانتقال السريع والمفاجئ بين " أعدى أعاديها " وبين " حصنا من أعاديها "، فهو تعبير يدل على هذا التحول السريع الذي أصاب عمر - رضي الله عنه -،ولعل التعبير بـ " أعدى أعديها " توحي بما كان عليه عمر- رضي الله عنه -من بغض وكراهية للإسلام والمسلمين، فهي من قبيل المبالغة في العداء. ثم فجأة يتحول إلى المخلص الأمين والمدافع الكبير عن الإسلام، بل والحصن المنيع له من الأعداء والخصوم.

ويختار الشاعر بعض اللقطات التي تصور كيف أسلم عمر - رضي الله عنه - تصويرا مبسطا وموحيا، فيذكر خروجه لإيذاء المسلمين ورسولهم الكريم -صلى الله عليه وسلم -، فإذا به يستمع إلى سورة "طه" وتتزلزل نيته المبيتة،ويتحول إلى واحد ممن ينضون تحت لواء الدعوة.

لقد رق قلب عمر - رضي الله عنه - وجوارحه للإسلام رغم شدته وقسوته ولم يسعه إلا الاعتراف بأنه كلام الله تعالى، فقال قولته المشهورة والتي ألمح إليها حافظ في الأبيات " ما أحسن هذا الكلام وأكرمه،... وقيل أنه قال : والله لنحن أحق أن نبادي أي أن نظهره ونعلنه على الناس منا بالكفر، فليظهرن بمكة دين الله،فإن أراد قومنا بغيا علينا ناجزناهم، وإن قومنا أنصفونا قبلنا منهم.." [2] يقول : [3]

خرجت تبغي آذاها في محمدها وللحنيفة جبار يواليها
فلم تكد تسمع الآيات بالغة حتى انكفأت تناولي من يناويها
سمعت سورة طه من مرتلها فزلزلت نية قد كنت تنويها
وقلت فيها مقالا لا يطاوله قول المحب الذي قد بات يطريها

إن الشاعر في هذه الأبيات اعتمد على السرد التاريخي ولا يحتاج إلى الصياغة البديعية،أو الألوان البلاغية، ولكن هذا لا يمنع من وجود لقطات طريفة، وألفاظ موحية تصور ذلك المشهد، ولكن لست مع الشاعر في استخدامه لكلمة " انكفأت " لأنها غير ملائمة، ولو قال " انبريت "، مثلا لكان أبلغ، وإنما أتى بها للإشارة إلى التحول الذي أصاب عمر - رضي الله عنه - عند سماعه سورة "طه " ليعطى هذا التحول الصورة الحسية ليرسخها ويقويها في ذهن المتلقي.

---

١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة /عز الدين بن الأثير الجزري / تحقيق محمد أحمد عاشور وآخرون / ط دار الشعب ج ٤ ص ١٤٧.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة / ج ٤ ص ١٥٠.

٣ - الديوان ص ٨٠.

لقد كان إسلام عمر- رضي الله عنه -فتحا وعزا وانتصارا للحق، حتى رُوي عن عبد الله بن مسعود قال "مازلنا أعزة منذ أسلم عمر."[1] ولهذا ركز "حافظ" على القيمة المستخلصة من إسلام عمر - رضي الله عنه -وهي إعزازه الحق، وتقوية الدين، وهي قيمة من أغنى القيم وأهمها، إذ أن الإسلام كان وقتها ضعيفا داخل مكة، وكان يخافت بصوته، وكان قليل الرجال، وكان لا قبل له بالطغاة من قريش،ومن هنا تبدو الأهمية الكبرى لإسلام عمر باعتباره واحدا من أقوياء قريش وزعمائها الذين يجمعون إلى الشجاعة الجرأة والإقدام والهيبة والمكانة والتأثير، يقول الشاعر :

ويوم أسلمت عز الحق وارتفعت عن كاهل الدين أثقال يعانيها
وصاح فيه بلال صيحة خشعت لها القلوب ولبت أمر باريها
فأنت في زمن "المختار"منجدها وأنت في زمن الصديق منجيها
كم استراك رسول الله مغتبطا بحكمة لك عند الرأي يلقيها

انظر إلى هذا الجرس الموسيقي في كلمتى "منجدها" و"منجيها" فهذا الجناس الناقص بين الكلمتين يعطي نغما موسيقيا جميلا، ففي الكلمتين تقارب نغمى وجناس اقترب إلى حد التصريع، وفي هذا الإيجاز البليغ في البيت الرابع من المقطوعة يوضح ويوجز مواقفه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بيت واحد ويبين دوره كمستشار موفق يقدم الرأي الصائب والمشورة الصادقة للرسول - صلى الله عليه وسلم - فيفرح بها ويأنس إليها - صلى الله عليه وسلم - ولعل الإتيان ب "كم" التي تفيد الكثرة توضح إلى مدى كان الرسول -صلى الله عليه وسلم -يطلب الرأي والمشورة من عمر.وكيف كان عمر - رضي الله عنه -أهلا لها، ثم إن كلمة "يغتبط" تدل على الراحة والارتياح والسرور الذي كان يشعر به النبي - صلى الله عليه وسلم - عند سماع مشورة عمر - رضي الله عنه -وأرائه السديدة.

ولاشك في أن الظروف الصعبة والمواقف الحرجة تتألق المعادن الأصيلة للرجال وفي يوم السقيفة تألق معدن عمر الأصيل،وهو معدن الرجل المسلم الصادق، الذي يضع مصلحة الدين قبل أي مصلحة ويتجاوز كل ما هو وقتي ومرحلي إلى ما هو مستمر ودائم.

"توفى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومر المسلمون بفترة حرجة وظروف صعبة، حيث بدت بوادر الفتنة، وأخذت المطامع تتحرك، وراح كل صاحب طموح يجرب حظه في تلك الشدة.....:،وبدأ البناء الشامخ المنتصر يهتز تحت ضغط هذا التوتر الذي لم يعرفه المسلمون تحت قيادة الرسول - صلى الله عليه وسلم-، وكان لابد من شخصية قوية تزيل هذا التوتر الذي لا عهد للمسلمين به، وتعيد البناء إلى عهده السابق شامخا منتصرا قويا،وكانت هذه الشخصية هي "عمر - رضي الله عنه -" الذي استطاع بجرأته وقوته المعهودة بالقضاء على الفتنة في مهدها،حين بايع أبا بكر وتبعه الناس، وتجاوز المسلمون الخطر العظيم. "[2].

فكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم،إذ بلغوا السقيفة في إبان الأحداث،وعالجوا الأمر حق علاجه، وقال كل منهم كلمة كانت أنفذ من سهم،وأقهر من

١- الفاروق عمر بن الخطاب / محمد رضا، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط٣ ١٩٨٣م /ص ١٨ .

٢- العمرية مقال للدكتور/ محمد حلمي قاعود / مجلة الدعوة / ص٤٠ (بتصرف)

جيش، ويصور "حافظ" هذه المحنة التي أحلت بالأمة تصويرا جيدا بأسلوب مبسط، سلس معتمدا على التاريخ، مركزا بالدرجة الأولى على حال المسلمين حين سمعوا نعي الرسول - صلى الله عليه وسلم - مصورا الفتنة التي بدأت تشتعل وتفرق المسلمين والذهول الذي سيطر على عمر نفسه حتى نسي قول الله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)[1].

وموقف لك بعد "المصطفى"افترقت فيه الصحابة لما غاب هاديها
بايعت فيه "أبا بكر " فبايعه على الخلافة قاصيها ودانيها
وأطفئت فتنة لولاك لاستعرت بين القبائل وانسابت أفاعيها
بات النبي مسجى في حظيرته وأنت مستعر الأحشاء داميها
تهيم بين عجيج الناس في دهش من نبأة قد سرى في الأرض ساريها

بد أ حافظ أبياته مبينا موقف عمر - رضي الله عنه -بعد موت النبي - صلى الله عليه وسلم - وحسمه لأمر المسلمين، فجاء بالجار والمجرور"لك " بعد كلمة "موقف" ليفيد التخصيص له دون غيره، ثم إن هذا الطباق في البيت الثاني له قيمة فنية جميلة، فالجمع بين "قاصيها" و"دانيها" يدل على العموم والكثرة والإجمال، ثم الفاء " في "فبايعه" تدل على السرعة الفائقة في حسم خلاف المسلمين فما كاد يبايع "عمر" أبا بكر" رضي الله عنهما حتى بايعه الجميع مبايعة تامة وانتهى الخلاف بين المسلمين.

ويؤكد الشاعر موقف عمر - رضي الله عنه -بتلك الاستعارة البديعة التي في البيت الثالث حيث صور الفتنة بالنار المشتعلة التي بدت بين القبائل بسبب اختيار خليفة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم -،ولكن حنكة عمر - رضي الله عنه - وجرأته وقوته حسمت الأمر بمبايعة أبي بكر - رضي الله عنه -فانساق الناس وراءه للمبايعة دون خلاف.والتعبير الذي اختاره الشاعر ليصور به هذا الأمر يوحي بشدة الخلاف بين الناس، ويدل على قوة النار وشدة تحركها وانتشارها. أيضا في قوله "انسابت أفاعيها" صورة طريفة، حيث صور القائمين على الفتنة بالأفاعي التي انسابت هنا وهناك تنفث سمها، وكلمة "انسابت" تدل على سرعة الحركة والانتشار الذي لا يوقفه شيء.

والمتأمل لهذه الأبيات يرى أن الشاعر استخدم أيضا التقديم والتأخير في أسلوبه في هذه الأبيات إذ بدأها بموقف عمر - رضي الله عنه - ثم أعقبها بدهشته وعدم تصديقه لموت الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

فحين انتقل رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - خيم الحزن والأسى وبدت الصدمة الشديدة على الجميع خاصة عمر - رضي الله عنه -الذي أصابه الذهول والدهشة ورفض نعي النبي - صلى الله عليه وسلم - وغضب غضبته المرهوبة وثار بالنعاة يتوعدهم ليقطعن رأس كل من يقول " مات محمد"،غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته، وكأنه استكثر بل استنكر فكرة موته - صلى الله عليه وسلم - وتناسى أنه -صلى الله عليه وسلم - بشر تجري عليه شؤون الكون، لولا كلمة من أبي بكر - رضي الله عنه – لاردت عمر إلى رشده.

١- سورة آل عمران آية ١٤٤

يقول الشاعر مصورا تلك اللقطات،وهذا المشهد :

تصيح من قال نفس المصطفى قبضت علوت هامتـه بالسيف أبريهـا
أنساك حبـك "طـه" أنـه بشـر يجري عليه شؤون الكون مجريها
وأنـه وارد لا بـد مـورده من المنيـة لا يعفيـه ساقيهـا
نسيت في حق "طه "أيـة نـزلت وقـد يذكـر بالآيـات ناسيهـا
ذهلت يومـا فكانت فتنـة عمـم وثـاب رشدك فانجابت دياجيهـا
فللسقيفـة يـوم أنـت صاحبـه فيـه الخلافة قد شيدت أواسيـا

انظر إلى تلك المفارقة أو المقابلة العجيبة في البيت الخامس بين الذهول وعدم التصديق، وبين العودة سريعا إلى الرشد والصواب، فقد صورها الشاعر في بيت متناغم جميل، فعودة الرشد إلى عمر - رضي الله عنه - جعلته يفطن إلى مستقبل الأمة ببصيرة المؤمن الذي يرى ويهتدي بنور الله،وهذا ما جعله بحق صاحب أو رجل يوم" السقيفة " كما رأى "حافظ " فقد استطاع بقوته وجرأته أن يقضي على الشحناء ومصدرها، وأخمد نيران العصبية، وأقام عمود الخلافة بفطنته، وأتاح للصديق الصادق للرسول -صلى الله عليه وسلم -أن يقود الأمة نحو شاطئ الأمان.

وهكذا نرى الشاعر قد أجاد في تصوير الفجيعة التي أحلت بالمسلمين بوفاة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - فقدم صورة متعددة الأجزاء، معبرة للناظرين،أخرجها في ثوب قشيب من الألفاظ الموحية من مثل " استعرت، تهيم، دهش، مستعر، تصيح، انسابت وغيرها.

أما المعاني فكانت عميقة تصور الألم والحزن والفجيعة التي أصابت الجميع وعلى رأسهم الفاروق، وقد استعان الشاعر على ذلك بتلك الصور الطريفة الموحية التي جسدت المعنى وأخرجته في صورة ملموسة محسوسة تقربه إلى الأذهان.

مواقف عمر مع الصحابة وغيرهم :

ويستمر "حافظ " في عرض محاوره فيبين مواقف عمر - رضي الله عنه -مع الصحابة،وبعض الشخوص الأخرى مثل "أبي بكر، وخالد بن الوليد، وجبلة بن الأيهم، وأبي سفيان، وغيرهم " وسوف استعرض بعض النماذج ليس كلها التي توضح تعامله وموقفه - رضي الله عنه -من تلك الشخوص خاصة بعد اعتلائه عرش الخلافة الإسلامية، والتي يتبين من خلالها عظمة الإسلام والمسلمين،وتعطينا أنموذجا حيا للمسلم القوي الذي يتفاعل مع الأحداث بما يحقق النصر والسكينة والأمن،والأمان والاستقرار.....، فنرى الحزم والعزم، والشجاعة والعدل، والعفة والزهد والورع ....، وكلها تصب في مجرى واحد هو الإسلام ومصلحة الأمة الإسلامية جمعاء.

لقد شغلت هذه المواقف التي تفرد بها عمر - رضي الله عنه - ذهن "حافظ" بصورة كبيرة حتى نظن بأنها إحدى الدوافع التي جعلته ينظم هذه القصيدة، وأظن أن "حافظا " لم يأت بها عشوائيا في ثنايا المطولة، بل كان يهدف بها إلى شيء أخر لا يخفى على من يتأمل القصيدة، ويتأمل في الوقت نفسه الظروف السياسية والاجتماعية وما آلت إليه الحياة في عصر الشاعر،ثم يربط بين الطرفين.. فالمتأمل يدرك أن الشاعر أراد تنبيه الناس وحثهم على طلب العدل، وإثارة الحمية في نفوسهم من أجل الحق، ومن أجل الحرية. فوضع أمامهم شخصية مثالية في كل شيء تحققت على يديها كل ما تصبو إليه النفس.

إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعد نموذجا فريدا للشخصية الإسلامية المتميزة، ومثالا للقائد العادل. وسوف نستعرض بعض هذه المواقف لا كلها حتى نقف على المراد من ذكر هذه المواقف.

عمر و جبلة بن الأيهم :

لقد سار عمر - رضي الله عنه -على المبدأ الذي اختاره وارتضاه لنفسه ولأمته، ولم يحد عنه قيد أنملة ليجامل قويا على حساب ضعيف، أو حاكما على حساب محكوم،أو أميرا على حساب أعرابي صغير، لأن في ذلك إخلال بالعدل الذي أؤتمن عليه وظهورا بالضعف والمواهنة،وهو القوي الذي تنثني أمامه العقبات ولا ينثني لها،وينحني أمامه الأقوياء ولا ينحني لهم، ولهذا نجده يأمر بالقصاص من فتى غسان "جبلة بن الأيهم "أحد أبناء الغساسنة ملوك الشام حين أعتنق الإسلام، وبينما هو يطوف حول الكعبة المشرفة إذ وطئ ثوبه إعرابي، فلطمه جبلة لطمة هشمت أنفه، فشكاه الإعرابي إلى عمر - رضي الله عنه - فأمر أن يقتص منه، وأبى جبلة ذلك، وهرب والتجأ إلى القسطنطينية وتنصر بها [1].

انظر إلى حافظ مصورا هذا الموقف بقوله: [2].

كم خفت في الله مضعوفا دعاك به وكم أخفت قويا ينثني تيها
وفي حديث فتى غسان موعظة لكل ذى نعرة يأبى تناسيها
فما القوي قويا رغم عزته عند الخصومة والفاروق قاضيها
وما الضعيف ضعيفا بعد حجته وإن تخاصم واليها وراعيها

لاحظ أن الأبيات بدأت ب "كم" الخبرية التي تفيد الكثرة ليوضح إلى أي مدى كان عمر - رضي الله عنه - عادلا حازما في الأمور ينصر الضعيف،ويقتص من القوي،حتى لو كان ذا مكانة عالية في المجتمع، فالعدل كما يقول العقاد"هو المساواة بين أبعد الناس في الحقوق وإقامة الحدود".

فعمر لا يجامل القوي لقوته فيتهم بالخوف منه، ولا يجور على الضعيف لضعفه، بل القوي عنده يصير ضعيفا حتى يأخذ الحق منه،ويصبح الضعيف قويا حتى يأخذ الحق له.

ولعل استخدام "حافظ" للقب "الفاروق" دون اسم عمر أو أي لقب آخر يؤكد في أذهاننا ما يعنيه هذا اللقب الذي أسبغه رسول الله -صلى الله عليه وسلم -على عمر عند إسلامه،وهو التفريق بين الحق والباطل، أو بصورة أشمل التفريق بين الجاهلية بكل ما تعنيه من ظلم ومحاباة وطبقية،وبين الإسلام وما يعنيه من عدالة وحق ومساواة.

ثم نلمح هذا الأسلوب المبنى على طريقة المقابلة التي تعطي قيمة فنية بارزة للأسلوب يهدف من خلالها إلى إبراز حقيقة هامة،وهي أن أمر القوة والضعف ليس هو ما تقرر عند الجماعة، وإنما له ميزان أخر، فالقوة ليس لها مصدر إلا الحق، فصاحب الحق في ميزان عمر ليس قويا فحسب، وإنما هو أقواهم ولو كان ضعيفا مخذولا، والقوي هو أضعفهم مادام الحق عليه وليس له.

عمر و أبو سفيان رضى الله عنهما :

وموقف عمر من "أبي سفيان" يتصل اتصالا وثيقا بموقفه إزاء جبلة بن الأيهم،" فأبي سفيان" صاحب التاريخ الحافل في مواجهة الإسلام، وهو جاهلي والذي أسلم يوم الفتح وجعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - داره مكانا آمنا يلجأ إليه كل خائف."وأبو

١- سورة آل عمران آية ١٤٤

٢- البداية والنهاية /إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي /تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي / دار هجر ١٩٩٧م ، ديوان حافظ ص ٨٢

سفيان" صاحب المكانة المرموقة التي يقدرها له أهل مكة كزعيم لا تنبغي معاملته كبقية الناس، ولكن " أبا سفيان " هذا صاحب المنزلة الرفيعة في قومه يطرحه عمر - رضي الله عنه - في القيد، لأنه أخذ مالا لنفسه بعث به ولده "معاوية" وكان واليا على الشام، ولم يدفعه إلى بيت مال المسلمين، لم يكن يجرؤ على ذلك بالطبع إلا عمر خليفة المسلمين، ورافع راية الحق والعدل والمساواة، ولا عجب أن يكون تعليق معاوية على خبر وضع أبيه في القيد إلا قوله : " أي والله والخطاب لو كان لطرحه فيه." [1] يقصد أن عمرا كان لا يتوانى في أن يضع أباه الخطاب في القيد لو كان هو الذي فعل ما فعله "أبوسفيان "وهكذا أكد الفاروق عمر على المساواة وآلا يتميز أحد على أحد يقول حافظ مصورا هذا المشهد : [2]

وما افلت "أبا سفيان" حين طوى عنك الهدية معتزا بمهديها
لم يغن عنه وقد حاسبته حسب ولا "معاوية" بالشام يجبيها
قيدت منه جليلا شاب مفرقه في عزة ليس عز يدانيها
قد نوهوا باسمه في جاهليته وزاده سيد الكون تنويها
في فتح مكة كانت داره حرما قد أمن الله بعد البيت غاشيها
وكل ذلك لم يشفع لدى "عمر" في هفوة "لأبي سفيان" يأتيها
تالله لو فعل "الخطاب" فعلته لما ترخص فيها أو يجازيها
فلا الحسابة في حق يجاملها ولا القرابة في بطل يحابيها
وتلك قوة نفس لو أراد بها شُمَّ الجبال لما قرت رواسيها

انظر إلى كلمتي " الحسابة" "والقرابة"، ثم إلى كلمتي "يجاملها" "و يجابيها"،لتدرك إلى أي مدى ظهر التناسب بين القصيدة والظروف العامة في المجتمع الذي كان يعيش فيه" حافظ "، وبينها وبين الغرض الذي استهدفه من نظمه لها.

فهذه الكلمات تشعرنا بانعطاف حاد رغما عنا إلى واقع العصر الذي عاشه "الشاعر" حيث سادت قيم المحسوبية والقرابة والمجاملة والمحاباة، وهو ما يقوي الظن بأن "حافظا" كان يضع نصب عينيه قضايا ملحة يعيشها عصره،وتؤرقه بصورة حادة. أيضا فإن منهجه في تصوير قوة النفس لدى "عمر " التي تطاول وتزلزل قمم الجبال وشموخها "شم الجبال " تجعلنا ندرك أن قوة النفس مطلب من مطالب "حافظ" في مواجهة الضلال والانحراف السائد في المجتمع، ولكن يبدو أنه كان يستشعر نوعا من اليأس في تحقيق مطلبه حفزه إلى تصوير قوة النفس لدى عمر ببراعة.

عمر وخالد بن الوليد - رضي الله عنهما - :

ونترك أبا سفيان لننتقل إلى لون آخر من ألوان العدل والمساواة التي عرف بها عمر- رضي الله عنه -والتي أرسى بها قواعد دولته، وهو موقفه من قائدين عظيمين،هما من أبرز الأبطال على مدى التاريخ الإسلامي الأول. أولهما: " خالد بن الوليد " - رضي الله عنه - هذا القائد المغوار الذي تمرس بالحرب وخاضها مرارا وشارك في أهم الفتوحات الإسلامية

---

١ - مقدمة الديوان.
٢- السابق ص ٨٣ديوان حافظ ص ٨٤ ، ٨٥

والغزوات مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي حروب الردة في عهد " أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -.

والثاني : هو"عمرو بن العاص - رضي الله عنه -"القائد الداهية الذي شارك في كثير من المواقع والغزوات منذ إسلامه إلى أن استطاع فتح فلسطين، ثم مصر، والولاية عليهما.

ومن المعروف أن للقائدين منزلة رفيعة وكيان،ووضع اجتماعي لا يجرؤ مجابهتهما بأوامر مثل العزل من منصبهما، أو القصاص أو غيرها إلا رجل بشخصية عمر رضي الله عنه.

"فخالد رضي الله عنه" سيف الله المسلول كما أطلق عليه الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم -، وقاهر الفرس والرومان كما وصفه " حافظ" وأجاد في وصفه حيث ذكر أنه اشترك في عشرين موقعه وقد وفقه الله بالنصر، وهو الذي جعل قائد الروم يفر عند مواجهته، ورامي الفرس تطيش سهامه عند منازلته يقول :[1]

سل قاهر الفرس والرومان هل شفعت له الفتوح وهل أغنى تواليها
غزى فأبلى وخيل الله قد عقدت باليمن والنصر والبشرى نواصيها
يرمي الأعداء بآراء مسددة وبالفوارس قد سالت مذاكيها
ما واقع الروم إلا فرَّ قارحها ولا رمى الفرس إلا طاش راميها
ولم يحز بلدة إلا سمعت بها الله أكبر تدوي في نواحيها
عشرون موقعة مرت محجلة من بعد عشر بنان الفتح تحصيها
"وخالد" في سبيل الله موقدها "وخالد" في سبيل الله صاليها

حرص الشاعر في تلك الأبيات على إبراز قوة خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وشجاعته وإقدامه، وقوة انتصاراته وفتوحاته، وأشاد بهذا البطل الكبير الذي تحققت على يديه الانتصارات والفتوحات الإسلامية، فذكر أنه قد أبلي بلاء حسنا في كل المعارك التي خاضها في سبيل الله، وكللت بالنصر،ثم بين أن جيش الروم،وجيش الفرس وهما من الجيوش المشهود لها بالقوة، لم تصمد أمامه وفرَّ القواد من ملاقاته.

كل هذا الثناء والإشادة بشجاعته وإقدامه، ذكرها الشاعر ليمهد لأبياته التالية والتي يصور فيها كيف استقبل هذا القائد العظيم الشأن نبأ عزله من قبل أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه -وتولية غيره قيادة جيش المسلمين يقول :[2]

أتاه أمر الله " أبي حفص " فقبله كما يقبل آي الله تاليها
واستقبل العزل في إبان سطوته ومجده مستريح النفس هاديها
فأعجب لسيد مخزوم وفارسها يوم النزال إذا نادى مناديها
يقوده حبشي في عمامته ولا تحرك مخزوم عواليها
ألقى القياد إلى الجراح ممتثلا وعزة النفس لم تجرح حواشيها
وانضم للجند يمشي تحت رايته وبالحياة إذا مالت يفدِّيها
وما عرته شكوك في خليفته ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها

١- السابق ص ٨٣ديوان حافظ ص ٨٤ ، ٨٥
٢- ديوان حافظ ص ٨٥

"فخالد" كان يدري أن صاحبه قد وجه النفس نحو الله توجيها
تالله لم يتبع في "ابن الوليد هوى ولا شفى غلة في الصدر يطويها
لكنه قد رأى رأيا فأتبعه عزيمة منه لم تثلم مواضيها

بين"حافظ " من خلال هذه الأبيات موقف "خالد" - رضي الله عنه -من قرار عزله وتولية قيادة الجيش لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فخالد مع عظمته وإبان سطوته وقوته العسكرية،وسيطرته على زمام جيش المسلمين، وقوة قبيلته ومكانتها بين القبائل، امتثل لأمر أمير المؤمنين امتثالا تاما بنفس مستريحة، وقلب مطمئن لعدل عمر - رضي الله عنه -وكان في إمكان خالد أن يعترض على هذا القرار وألا يستجيب، بل كان في مقدوره أن يجعل جيش المسلمين يلتف حوله يؤيده، خاصة أنه البطل المغوار والفارس المظفر، والمحبوب من قبل الجميع، ولكن حكمة خالد وإيمانه الكامن في قلبه، وإيمانه المطلق بعدل عمر- رضي الله عنه -، وخوفه على وحدة الصف من الانقسام جعل خالد ينصاع لأمر عمر دون تفكير.

ولا يهمنا هنا السبب في عزل عمر لخالد رضي الله عنهما فقد تناولته كتب السيرة وأفاضت فيه واختلفت الآراء حوله، ولكن الذي يعنينا هنا أو بمعنى أدق يعنى حافظ إبراهيم هو جرأة عمر في اتخاذ قرار عزل خالد وهو في أوج قوته وسيطرته، فهذا القرار لا يتخذه غير عمر، ويدخل تحت هذه الجرأة قبول خالد وامتثاله لقرار عمر، وانطوائه تحت لواء "أبي عبيدة بن الجراح " كجندي من جنوده، فالقائد الذي يكون على مستوى المسؤولية هو الذي يضع نصب عينيه مصلحة قومه، ولا ينشغل عنها بمصلحته الشخصية وهذا ما أكدته الأبيات وركزت عليه.

وفي سياق تلك الأفكار والمعاني كانت عاطفة الشاعر تمور بالإعجاب المنبثق من الشخصيتين "عمر".

ومن الملاحظ أن هذا المحور يعد من أطول المحاور في القصيدة إذ استغرق تسع وعشرون بيتا وقد جعله الشاعر على فكرتين :

<u>الأولى</u> :أشاد فيها بخالد وعظمته وقوته وبأسه، فأعطاه حقه الذي يستحقه باعتباره رجل من رجالات النصر والقوة.

<u>الثانية :</u> تدور حول جرأة عمر وشجاعته في عزل خالد، وانصياع خالد للأمر وطاعته التامة لخليفة المسلمين.

في جرأته وحزمه، و"خالد"في شجاعته وطاعته، إنها لعاطفة عميقة انبثقت من أعماق قلب معجب أيما إعجاب بشجاعتهما، وقد أغنى تدفقها إلى جانب حبه وإعجابه ما عمرت به نفسه من شعور إسلامي أصيل فجاءت عاطفة ذاتية دينية في آن واحد واتسمت بالصدق والأصالة.

ومن خلال هذه الموازنة كانت المعاني تنداح في مخيلة الشاعر فتنساب من قريحته صافية خصبة، واضحة جلية، تصور هذا الموقف كما ارتسم في مخيلته، في عرض منطقي سريع يبدو فيه أثر الإسلام واضحا، وآثر أن يترك نفسه الشاعرة على سجيتها تصف ذلك المشهد وصفا طبيعيا مباشرا، فجلال الموقف ونصاعة المعاني الإسلامية لم يكن يسمح بمزيد من التدقيق في رسم الصورة الفنية، ولهذا انصرف عن تحبير القول وتدبيج الصور، والتفنن في عرض المعاني، ولجأ إلى سرد الأحداث وإرسال أفكاره على سجيتها،من غير تزويق ولا تكلف.

بيد أن الأبيات لم تخل من بعض الألوان البلاغية البارزة، فقد استهلها الشاعر بهذه الأساليب الإنشائية التي تلفت انتباه السامع، انظر هذا الأمر في البيت الأول:

سل قاهر الفرس والرومان هل شفعت له الفتوح وهل أغنى تواليها

فالأمر والاستفهام هنا جاءا لتقرير المعنى وتوضيحه. ثم انظر إلى تلك الكناية البديعية في البيت نفسه في قوله "قاهر الفرس " التي تدل على شجاعة وبسالة هذا القائد العظيم "خالد بن الوليد " الذي قهر الفرس والروم وانتصر عليهم انتصارا مشرفا، وكذلك قوله " هل أغنى تواليها " بما توحيه من الاستمرار في الانتصارات والفتوحات الإسلامية على يديه.

ثم انظر إلى هذه الاستعارة المكنية التي في قوله "هل شفعت له الفتوح " حيث صور الفتوحات بإنسان يشفع لخالد.

أما البيت الثاني الذي يقول فيه :

غزى فأبلى وخيل الله قد عقدت باليمن والنصر والبشرى نواحيها

فقد أتى بالفاء "فأبلى " لتدل على التعقيب، ثم عطف بالنصر والبشرى على اليمن يفيد التنوع، وهذا البيت فيه دلالة وإشارة إلى قول الرسول -صلى الله عليه وسلم - " الخيل معقود بنواصيها الخير " والشاعر هنا أدخل الباء على اليمن وليس على النواصي كما هو مسموع لدى العرب على سبيل القلب. والبيت فيه أيضا كناية عن الاستعداد للقتال في أي وقت،وهذا نلمحه في قوله " وخيل الله قد عقدت ".

ثم يتوالى هذا الفيض من الصور والأخيلة التي اعتمد الشاعر فيها على عنصر التشخيص ليبرز المعنى في صورة مجسدة،والتي تؤكد براعة الشاعر في هذا الجانب، وعلى قدرته البلاغية على عكس ما اتهمه بعض معاصريه " بأن شعره سهل المتناول، قريب التعبير لا يجد القارئ في شعره ما يشبع هواه وخياله،رزق عطف القلوب، ولم يرزق عطف الأخيلة، وأن شعره ضحل قليل العمق تأسرك سطوة ألفاظه فإن فتشته وجدته خاليا من فحول المعنى وعمق الفكر، وأن الجانب الخطابي المهيمن عليه، ويكاد يتفق النقاد على أن حافظا حريص على اللفظ والجرس الموسيقي القوي، فكان اللفظ القوي الخطوة الأولى في فنه، أما المعاني فتجيء في المرتبة الثانية." [1]

لا شك في أن هذا الرأي فيه مبالغة وتعميم لا ينطبق على جميع شعر حافظ إبراهيم. فالمتأمل لقوله مثلا :

يرمي الأعادي بآراء مسددة وبالفوارس قد سالت مذاكيها

يرى هذا التشخيص البديع، حيث شبه آراء" خالد بن الوليد" بالسهام المصوبة نحو الأعداء ترميهم، على سبيل الاستعارة المكنية،ثم هذه الكناية في الشطرة الثانية التي تدل على الانتشار والكثرة، ثم شبه الخيل والفرسان بانسيال الماء، وهي توحي بالسرعة وبالقتل وانتشاره بين صفوف الأعداء.

ثم انظر إلى هذا إلى هذا التخصيص المفهوم من أسلوب القصر في البيت الذي يليه:

وما واقع الروم إلا فر قارحها ولا رمى الفرس إلا طاش راميها

فهذا التخصيص بالقصر يؤكد قوة "خالد " واختصاصه بهذه القدرة والقوة. فهو القائد العظيم المنتصر في كل معركة يخوضها، وهو المعلي لكلمة الحق،ورافعا راية التوحيد

١- الأدب العربي الحديث / محمد صالح الشنطي / دار الأندلس / ط ٦ ٢٠٠٨م /ص ٩٨

في كل بلد يفتحها، لذا تسمع دوي الله أكبر في أرجاء كل بلدة قام بفتحها، ولعل تنكير كلمة بلدة لتوحي بتعدد فتوحاته، فشملت العديد من البلدان.

لقد انتصر خالد كما يرى الشاعر في عشرين موقعة كان النصر فيها حليفه، وكان نصره واضحا مجلجلا مشرقا، وقد سجل التاريخ له هذه الانتصارات وحفظها في القلوب قبل الأوراق.

ومن الصور البارزة في الأبيات أيضا تلك الكناية اللطيفة، وهذا التشبيه البديع الذي يصور استقبال "خالد" - رضي الله عنه -لأمر عزله بنفس راضية، دون نقاش أو اعتراض أو تذمر، وهو القادر على هذا الأمر بما له من مكانة عالية في صفوف المقاتلين، ومنزلة رفيعة في مجتمعه، ومنزلة قبيلته بين القبائل، ولكنه الإيمان الخالص، ومصلحة الأمة الإسلامية التي تحتم عليه قبول هذا القرار بنفس مطمئنة وبال مستريح إلى عدل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول الشاعر:

أتاه أمر "أبي حفص " فقبله كما يقبل آي الله تاليها

واستقبل العزل في إبان سطوته ومجده مستريح النفس هاديها

انظر كيف صور الشاعر هذا الأمر من خلال هذه الاستعارة المكنية،حيث شبه الأمر بإنسان أتى إليه بخبر فقبله بحب وارتياح كما يستقبل من يقرأ ويتلوا آيات الله، ثم تلك الكناية "أستقبل العزل في إبان سطوته"التي توحي بالطاعة التامة والامتثال لخليفة المسلمين ، كذلك التي في قوله :" (ومجده مستريح النفس هاديها)، فهي توحي بمدى طاعة "خالد " واطمئنان نفسه الزكية لقرار عمر، فالكلمات تتجلى فيها عاطفة الولاء والحب، وتدل على تقدير واع وفهم عميق لما أحدثه الإسلام في نفوس المسلمين من أثر عظيم ومعان جليلة.

وهذا الامتثال والطاعة لخليفة المسلمين لم تقتصر على القائد " خالد" - رضي الله عنه -فحسب بل شملت قبيلته " بني مخزوم" التي امتثلت لعزل " خالد " إذ كان في مقدورهم الانتصار له والدفاع عنه، والثورة على عمر - رضي الله عنه - وهذا فيه دلالة أيضا على ما أحدثه الإسلام في نفوس القبائل العربية من تغيير.

فأعجب لسيد مخزوم وفارسها يوم النزال إذا نادى مناديها

يقوده حبشى في عمامته ولا تحرك مخزوم عواليها

لقد أفاض الشاعر في هذا المشهد فجلي لأبصارنا تلك الموازنة بين شخصيتين متميزتين:

الأولى عمر وجرأته وقوته.

والثاني – خالد – في امتثاله وطاعته رغم قوته.

ويمض الشاعر من صورة إلى أخرى ويتصاعد الخيال مشرقا ينساب قريحته انسياب الماء من الكأس المترعة، تستفرغ شحنات عواطفه، تصور ما يمور في أعماقه من مشاعر ومعاني رقراقة، فنلمح هذا التعبير البلاغي الرائع،وهذه الصورة البيانية المتمثلة في هذه الاستعارة اللطيفة التي تضمنها قوله :

ألقى القياد إلى الجرَّاح ممتثلا وعزة النفس لم تجرح حواشيها

والضمير هنا يعود إلى فارس مخزوم "خالد بن الوليد"، والجراح هو "أبو عبيده بن الجراح" رضي الله عنهما، وقد شبه الشاعر عزة نفس خالد بالإنسان الذي يجرح على

سبيل الاستعارة المكنية، فعزة نفسه كما هي محفوظة لم ينل منها هذا العزل ولم ينقص من قدره شيء.

وأما قوله:

وما عرته شكوك في خليفته ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها

فالشطرة الأولى من البيت فيها كناية توحي بإيمان "خالد" - رضي الله عنه - المطلق بعدل عمر - رضي الله عنه -وحكمه، أما الشطر الثاني فيه كناية عن طهارة قلب " خالد "ونقاء نفسه وصدق فعله فتقبله لهذا الأمر ليس ظاهريا، بل كان ظاهرا وباطنا فلم يتحامل على "عمر " أو يضمر في نفسه الضغينة له.

ثم إن تكرار النقي يفيد التوكيد ويزيد المعنى وضوحا.

"فخالد" - رضي الله عنه -كان يدرك ويدري ويؤمن أن "صاحبه" أي"عمر" - رضي الله عنه -ما فعل هذا الأمر إلا ابتغاء وجه الله سبحانه :

" فخالد" كان يدرى أن صاحبه قد وجه النفس نحو الله توجيها

انظر إلى هذا التجانس اللفظي المتمثل في الاشتقاق اللفظي بين "وجَّه"وبين "توجيها "والتي أكسب الكلام رونقا وجمالا وجرسا موسيقيا، كما أن قوله :" أن صاحبه" توحي بالصداقة والحب والتآخي بينهما،وأن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية كما يقال.

وتتوالى الصور والمحسنات البديعة في هذا المحور، والتي جاءت عفو الخاطر دون تكلف،مما أكسبها جوا من التناغم والجرس الموسيقى، كما أنها توحي بتلك العاطفة الجياشة للرجلين، والإعجاب الشديد بما انطوت عليه نفسهما من التقوى والورع وطهارة النفس وصفاء القلب.

ومن هذه المنطلقات الإسلامية والنفسية جاءت معانيه واضحة،سلسة لا لبس فيها ولا غموض، كما جاءت ألفاظه خادمة لتلك المعاني والأفكار.

ويعلق الدكتور "محمد نايل " على هذه الأبيات التي تصور موقف خالد - رضي الله عنه -بقوله : " هو موقف من مواقف الإيمان الخالدة، اجتازه خالد وقبيلته، في صورة لا تقوى عليها نفوس البشر، إلى حين يرفعها الإيمان إلى صف الملائكة. فكان على الشاعر أن يقف هنا طويلا، ليصور المشاعر التي تتعرض لها النفوس البشرية عادة في مثل هذا الموقف، ثم يكشف وجه العبرة في هذه التجربة المعجزة، التي لا تعرف كلمة "أنا " أو " نحن " بما تحملان من أنانية وذاتية، بل عرفت كيف ترفع المثالية العليا، في قوم كانوا بالأمس يتفاوتون تحت شعر " أنا ونحن " في حرب لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

ولكن ماذا يصنع الشعر، وماذا يبلغ في تصوير هذه التربية العجيبة، التي تمتحن الأبطال بتعفير هاماتهم، وهم في أروع هاماتهم، وهم في أروع أمجادهم وفخارهم، لتعدهم لحمل الأمانة الكبرى، في بناء الحياة وأمجاد التاريخ. " [1]

عمر وعمرو بن العاص رضي الله عنهما :

وأما موقف "عمر" مع عمرو بن العاص رضي الله عنهما هذا البطل المغوار صاحب الفتوحات الإسلامية، فقد اكتفى "حافظ إبراهيم "بموقف واحد، يبرز جرأة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -وقوته فيما اتخذه مع عمرو - رضي الله عنه -وإذعان عمرو بن العاص - رضي الله عنه -لأوامر عمر وتعليماته.

١-اتجاهات وآراء في النقد الحديث / د محمد نايل / ط مطبعة الرسالة / ص ٤٧

وقد كان شأن عمر - رضي الله عنه -مع عماله أن يصادرهم في أنصاف أموالهم، لأنه كان يرى أن ما يجمعونه من المال إنما هو حق للمسلمين، فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد إلى بيت المال، فعل هذا مع من رأى لديهم ثروة لم يعلم مصدرها،ومن هذا المنطلق بعد أن نمى إلى علمه تنامي مال عمر وتكاثره بعد توليه الولاية على مصر كتب إلى عمرو بن العاص - رضي الله عنه -كتابا جاء فيه :" إنه قد فشت لك فاشية من متاع ودقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر".

فكتب إليه عمرو : إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر،فنحن نصيب مما نحتاج إليه لنفقتنا، فكتب إليه : إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلي كتاب من أقلقه الأخذ بالحق،وقد سؤت بك ظنا، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمه ليقاسمك مالك، فأطلعه عليه وأخرج إليه ما يطالبك به، وأعفه من الغلظة عليك، فلم يسع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته وبعده عن أمير المؤمنين إلا الخضوع لما أمر به، ومقاسمة ابن مسلمة ماله." [1] يقول حافظ مصورا ذلك: [2]

شاطرت داهية السُّوّاس ثروته ولم تخفه بمصر وهو واليها
وأنت تعرف (عَمرا) في حواضرها ولست تجهل (عَمرا) في بواديها
لم تنبت الأرض كابن العاص داهية يرمى الخطوب برأي ليس يخطيها
فلم يرغ حيلة فيما أمرت به وقام (عمرو) إلى الأجمال يزجيها
ولم تقل عاملا منها وقد كثرت أمواله وفشا في الأرض فاشيها

وهذا الموقف على إيجازه إلا أنه يحمل دلائل ومعاني كثيرة منها:

*الطاعة المطلقة والإذعان التام للقائد العام للمسلمين كسابقتها مع خالد الذي هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وخليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، لكنه امتثال حب وإيمان واقتناع، كما أنها تجسد معنى العدل والمساواة في أجمل وأروع صورها. وقد اعتمد الشاعر في هذه الأبيات على الصورة لتشخيص هذه المعاني،والتي بدأها بتلك "الكناية" في "داهية السواس" والمراد بها عمرو بن العاص - رضي الله عنه -وما كان يتمتع به من دهاء فاق أقرانه. ثم هذا الطباق بين (حواضرها" "وبواديها) وبين (تعرف ، وتجهل)، والذي يدل على انتقال "عمرو" من حياة البداوة في شبه الجزيرة العربية، إلى حياة الحضر في مصر، والتغيرات التي حدثت في حياته معيشته.

أما البيت الثالث فقد اشتمل على هذه الصور البيانية التي جسدت المعنى وأبرزته في صورة حسية، انظر إلى هذه الاستعارة في الشطرة الأولى من البيت "لم تنبت الأرض كابن العاص داهية "حيث شبه عمرو بالزرع الذي تنبته الأرض، وفيه كناية أيضا عن تفرده في هذا المجال (الدهاء).

ثم تأمل هذه الصورة اللطيفة في الشطر الثاني إذ جعل آراء " عمرو" كالسهام التي تصيب الهدف ولا تخطيء على سبيل الاستعارة المكنية. أما قوله :

فلم يرغ حيلة فيما أمرت به وقام (عمرو) إلى الأجمال يزجيها

فالبيت يحتوي على كناية توحي بالطاعة العمياء والامتثال لأوامر خليفة المسلمين، وتنفيذها على الفور دون حيلة أو مكر، فقد كان في مقدور "عمرو" وما اشتهر به من

١- ينظر ديوان حافظ ص ٨
٢- ينظر ديوان حافظ ص ٨

الدهاء أن يجد من الحيل ما يجعله يحتفظ بماله ولكنه لم يفعل، بل قام يسوق الجمال بما تحمله من ماله وسلمه إلى رسول "عمر " رضي الله عنه. كذلك اشتمل البيت الأخير على كناية لطيفة حين يقول:

ولم يقل عاملا منها وقد كثرت أمواله وفشا في الأرض فاشيها

ففيه كناية عن مبدأ المساواة والعدل بين الجميع،فقد استعمل هذا المبدأ مع جميع عماله فلم يعف أحدا من مشاطرة ماله ورد جزء منه إلى بيت المال، ثم انظر إلى هذا التجانس اللفظي أو الاشتقاق اللفظي بين " فشا، وفاشيها" الذي أعطى جرسا موسيقيا للبيت.

لقد حذر عمر - رضي الله عنه- من استغلال النفوذ والجاه، والوسائط والمحسوبية والرشاوى وغيرها من مفسدات الحياة، ولعل اهتمام الشاعر بهذا المحور هو من قبيل الإسقاط على عصره،وما شاع فيه من فساد ورشوة ومحسوبية..... طغت على الحياة، فتمنى أن يرزق الله البلاد شخصية كشخصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. يحقق فيها العدل والمساواة.

لا شك في " أن العمل الإداري الناجح هو ما يقوم المسئولون به دون أن يتميزوا على سائر الناس، بل يكونون قدوة لغيرهم في عدم التميز، وفي عدم استغلال الجاه أو النفوذ،... ولقد بدأ سيدنا عمر - رضي الله عنه - بنفسه فحذر أهله وعشيرته من استغلال اسمه أو قرابتهم منه، وأمرهم أن يكونوا أخر من يشبع،وأول من يجوع، كما أنه كان يحذر ولاته من استغلال نفوذهم أو الحصول على أيسر شيء باسم الوظيفة، وكان في ذلك مقتديا بالرسول- صلى الله عليه وسلم - التي ضرب أروع الأمثلة في ذلك:"[1].

وقد صور حافظ إبراهيم أكثر من موقف لعمر- رضي الله عنه -في هذا الشأن منها ما فعله "عمر" حين مرت من أمامه "نوق " بدت عليها آثار النعمة والسمنة، فسأل عن صاحبها فقيل له إنها لعبد الله بن عمر، فإذا هو يسوقها إلى بيت المال ظنا منه إن ثروة ابنه لا تفي له، وأنه لولا جاهه بين الناس ما كان ليقدر على إطعامها يقول الشاعر:

وما وقي ابنك "عبد الله" أينقه لما اطلعت عليها في مراعيها
رأيتها في حماه وهي سارحة مثل القصور وقد اهتزت أعاليها
فقلت: ما كان "عبد الله يشبعها لو لم يكن ولدي أو كان يرويها
قد استعان بجاهي في تجارته وبات باسم أبي حفص يُنميِّها
ردوا النياق لبيت المال إن له حق الزيادة فيها قبل شاريها

هكذا كان عمر"- رضي الله عنه -حريصًا على مبدأ المساواة بين الرعية وعدم التمييز وعدم استغلال الجاه أو النفوذ في أسمى صوره ومعانيه،ولعل حافظا بهذه الأبيات أراد أن يوقظ الشعور القومي بالمسئولية، وينبه إلى خطر استغلال النفوذ والسلطان وأن يحث ولاة الأمر بعدم التمييز بين الرعية، وأن يحققوا مبدأ المساواة بين الجميع.

ويمضي الشاعر في قصيدته ذاكرا بعض المواقف والأمور التي تُروى عن عمر - رضي الله عنه -في سيرته العطرة ممن اشتهر به وعُرف عنه، نتوقف عند بعضها ليس كلها لضيق المقام موقف المتأمل، لنستشف من ورائها ملامح أخرى من شخصية "عمر " - رضي الله عنه -.

١- العشرة المبشرون بالجنة / ملحق بجريدة صوت الأزهر / بقلم د أحمد عمر هاشم / مطابع الأهرام ص ١٨.

**عمر والعدل :

لقد طبق عمر - رضي الله عنه -مبدأ المساواة والعدل في حياته، مقتديًا بالرسول - صلى الله عليه وسلم -سائرا على نهجه " فالعدل أساس الملك والعدل أساس الأمن والاستقرار، فحيث انتشرت العدالة ولم يكن هناك ظلم من كبير إلى صغير، أومن مسئول أومن ولي ألأمر، لابد أن يستقر العمل ولابد أن تستقر الحياة.

أما في جو الظلم فلا يكون هناك أمن ولا استقرار، فنرى المظلوم متبرما من العمل، ومن القائمين عليه ولا ترى تعاونا بين العاملين الذين يشعرون بالظلم، فنهاية الظلم وخيمة وعاقبته أليمة، وقد وضح الله تعالى أن الأمن والاستقرار للمؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم فقال جل شأنه : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)(١) أما في ظل الحياة العادلة ترى الجميع آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. (٢)

وإذا نظرنا إلى حياة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نجده قد طبق العدل في أسمى معانيه، ولعل خير دليل على ذلك ما يروى عنه حين جاءه رسول كسرى بالمدينة،وكان يظن أنه سيلقى ملكا عظيما ذا جاه وسلطان، وحرس وحجُّاب،على ما كان عليه الملوك في فارس وغيرها،لكنه لم يجد له قصرا ولا بيتا متميزًا عن سائر الرعية، بل وجد بيتا كبيوت أفقر العرب،وحين سأل عن خليفة المسلمين أو أمير المؤمنين كما وصفه وجده نائما على الرمل أمام بيته جاعلا من يده وسادة أسند إليها رأسه، ولم يكن حوله من مظاهر الحياة ما يميزه عن أصغر فرد في رعيته، فدهش رسول كسرى لما شاهده وقال قولته المشهورة : "حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر ".

وقد صور حافظ إبراهيم هذا المشهد بقوله :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بموك الفرس أن لها سورا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقا في نومه فرأى فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

ها هو خليفة المسلمين نائم مستكين مطمئن أمام بيته،يستظل شجرة لا حراس ولا حجاب، قطعة من القماش بالية تغطيه لا حرير ولا ديباج، نائم هادئ البال لا يقلقه خوف يترصده،أو عدو ينال منه، فكان من الطبعي أن يهتدي إلى تلك النتيجة المنطقية التي نطق بها لسانه حكمة قالت فصارت مثلا يضرب في كل حين يرددها الأجيال جيلا بعد جيل.

لقد صور "حافظ" هذا المنظر في براعة فائقة،إذ يجعل المرء يشعر بهوان الدنيا وصغر حجمها أمام هذا المشهد الفريد، الذي استهله بهذا الجناس البديع بين "راع و راعيها"،بل إننا نستطيع القول بأنه مهد للقافية بما هو مشتق منها، بما يسمى رد الصدر على العجز، وهذا له وقع موسيقي على الآذان يجعلها تنتبه لما يلقى عليها بعد ذلك، وقد

١- سورة الأنعام آية ٨٢

٢- العشرة المبشرون بالجنة ص ١٨

استخدمه في أكثر من موضع في القصيدة كذلك نلمح بعض الألوان البلاغية التي جاءت عفو الخاطر كما في قوله :" فيه الجلالة " كناية عن الوقا والهيبة، وقوله :"ببردة كاد طول العهد يبليها " كناية عن الملابس البالية التي كان يرتديها "عمر" وهو خليفة المسلمين، والتواضع في المظهر العام،والصور البيانية في هذه الأبيات قليلة بالقياس إلى غيرها، حيث اعتمدت على أسلوب السرد، والأساليب الخبرية.

**عمر والشورى :

لقد طبق عمر - رضي الله عنه -مبدأ الشورى في كل حياته مقتديا في ذلك أيضا برسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فلم يتخل عن الشورى حتى آخر لحظة في حياته،ولم يفارق الشورى حتى وهو في النزع الأخير، " لقد كان- رضي الله عنه -أول من أقر الشورى في اختيار الخليفة، فعندما سألوه، وقالوا له : من توصى به ؟ قال للمقداد بن الأسود إذا وضعتموني في حفرتي فأدخل "عليا،وعثمان،والزبير، وسعدا، وعبد الرحمن بن عوف،طلحة" وأحضر عبد الله بن عمر، ولا شيء له من الأمر وقم على رءوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا أبى واحد فاضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضي اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلا، وثلاث رجلا منهم ، فحكِّموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الله،وابن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس." (١)

يقول الشاعر معبرا عن هذا :

يا رافعا راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيرا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها وللمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله إلى الجماعة إنذار وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيها شعبا فجرد السيف واضرب في هواديها
فا عجب لقوة نفس ليس يصرفها طعم المنية مرا عن مراميها
درى عيد بنى الشورى بموضعها فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأي في حكومته إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقي البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

"هكذا كان عمر - رضي الله عنه -ممن يأخذون الشورى في أمورهم، وكان يقول لا خير في أمر أبرم من غير شورى، وكان يقول :- رضي الله عنه -" إن أخوف ما أخافه عليكم إعجاب المرء برأيه (٢).

"فعمر" رسخ مبدأ الشورى بين المسلمين،والشورى هي القاعدة الرئيسة التي نص عليها دستور المسلمين فقد قال الله تعالى: " والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون " (٣).

١- ينظر ديوان حافظ ص ٨٧

٢- العشرة المبشرون بالجنة / ملحق بجريدة صوت الأزهر / بقلم د أحمد عمر هاشم / مطابع الأهرام ص ١٦، ١٧

٣- سورة الشورى آية

والمتأمل للأبيات يجد أنها تقدم صورة صادقة لعبقرية "عمر"في تطبيق مبدأ الشورى التي نادى بها الإسلام، فعلى الرغم أنه كان يعاني من سكرات الموت ويذوق مرارة المنية إلا أن هذا لم يمنعه من تطبيق مبدأ الشورى في اختيار خليفة للمسلمين من بعده.

اشتملت الأبيات على بعض الألوان البلاغية ،وعلى الصياغة اللفظية،انظر إلى جمال الاستعارة في قوله "طعم المنية مرا من مراميها " وهذا الجناس الناقص بين "مراد،ومراميها "، أيضا هذا التنويع في تلوين الأسلوب بالأساليب الخبرية والإنشائية ومالهما من أثر واضح في تنبيه السامع والمتلقي،وإيقاظ شعوره تجاه مبدأ اندثر في ظل حكومات ضعيفة كذلك أدى التوازن الصوتي دورا رائعا في انسجام المعنى،وانسياب الحروف والكلمات على اللسان انسيابا تاما، وقد ربط بين هذه الوسائل الفنية كلها بسياج من عاطفته فجلاها حتى أصبحت على تلك الصورة الجميلة التي تسيل خفة ورقة ثم إن حافظ ختم الأبيات بحكمة بليغة تنم عن صدق تجاربه في الحياة، وتلمح من خلالها بعض ملامح عصر الشاعر وما فشا فيه من ظلم واستبداد بالرأي:

وما استبد برأي في حكومته إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقي البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

مثال من رحمته - رضي الله عنه-

وفي القيام على أمورهم وخدمتهم وكان يقوم بذلك بنفسه ولا يرى حرجا في ذلك،بل كان قمة في تواضعه وخدمته لكبار السن والمحتاجين، ولقد طبق هذا المبدأ أعظم تطبيق، فقد كان يخرج ليلا يتفقد أحوال رعيته، وذات مرة علم أن امرأة قد أوقدت النار توهم أطفالها الصغار أنها تقوم بطهي طعام لهم، تريد أن تسكن من غضبهم وبكائهم، بينما هي لا تقوم بطهي شيء، وإنما أوقدت النار على ماء وحصى تريد أن تلهى بذلك أطفالها الذين عضهم الجوع لينام،فحمل إليها من بيت المال الدقيق وما تحتاجه من طعام،بل وساعدها في إشعال النار وانضج لها الطعام،ولم ينصرف حتى أكل الأطفال واطمأن عليهم واستراحوا يقول حافظ إبراهيم معبرا عن هذا الموقف النبيل :

ومن رآه أمام القدر منبطحا والنار تأخذ منه وهو يزكيها
وقد تخلل في أثناء لحيته منها الدخان وفوه غاب فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على حال نزوع لعمر الله رائيها
يستقبل النار خوف النارفي غده والعين من خشية سالت مآقيها

فالأبيات على إيجازها إذ لم تتعدى أربع أبيات إلا أنها تحمل بين طياتها كثيرا من المعاني والأفكار وكان من أهمها تلك المسؤولية الكاملة تجاه الرعية الذي أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم -بها. " كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته " لذا حرص عمر- رضي الله عنه -على تطبيق كلام الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم - في هذا المجال.

ثم انظر إلى تلك الرهبة والخوف مما هو آت نلمحه في قوله :

يستقبل النار خوف النار في غده والعين من خشية سالت مآقيها

فالبيت فيه كناية عن يوم القيامة وعذاب الله للمذنبين المقصرين خاصة أولى الأمر، لذلك كان حريصا على التقوى والورع والخشية من الله سبحانه حتى يقيه الله عذاب النار.

مثال من تقشفه وورعه :

ليس هذا فحسب ما تحلى به عمر - رضي الله عنه -من مكارم وصفات نبيلة صورها حافظ ببراعة، بل نراه ينوه إلى صفات أخرى لا تقل أهمية مما سبق،وقد حرص الشاعر على إبرازها لتكون نبراسا يهتدي بها العامة والخاصة على السواء، وأصحاب السلطة والجاه في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

لقد كان عمر أمينا على الأمة محافظا عليها، قائما على شئونها يحافظ عليها كل الحفظ،على أموالها وعلى سائر شئونها يتألم، ويفرح لفرحها لا يتميز أحد عنده على أحد حتى لو كان أمير المؤمنين نفسه، حتى لو كانت زوجه التي تعينه على الطاعة، إنه مبدأ القدوة في نفسه وأهل بيته ليكون مثالًا يحتذى ويسير على منهجه جميع ولاته، ومما يدل على ذلك ما روي من أن زوجه اشتهت الحلوى وأرادت أن تشتريها من مال ادخرته من مصروف بيتها فأبى عمر - رضي الله عنه -أن يتمتع أهل بيته بشيء كمالي يمكن الاستغناء عنه وفي المسلمين بطون جائعة، وأمر برد ثمن الحلوى إلى بيت مال المسلمين ليسد جوع جائع منهم، وهكذا ضرب عمر أروع الأمثلة في الورع والتقوى،وطبق مبدأ المساواة بين الرعية، ولكي تكون دعوته للمساواة دعوة مسموعة، ولكي يستجيب الرعية له رأى أن يبدأ بنفسه وبأهله، وأن يعطي نموذج القدوة من ذاته يقول"حافظ" معبرا عن هذا الموقف :[1]

١- ينظر ديوان حافظ ص ٩٣

إن جاع في شدة قوم شركتهم في الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته في الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى(أبا حفص) وسيرته أومن يحاول (للفاروق) تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى فأشريها
لا تمتطي شهوات النفس جامحة فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها
وهل يفى بيت مال المسلمين بما توحى إليك إذا طاوعت موحيها
قالت: لك الله إني لست أرزؤه مالا لحاجة نفس كنت أبغيها
لكن أجنب شيئا من وظيفتنا في كل يوم على حال أسويها

إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -كان يمثل القدوة المثلى لجميع الولاة ولجميع أفراد رعيته في المساواة وفي غيرها من أمور الحياة، وحين يرى الولاة أن أمير المؤمنين لا يقبل أن يتميز عن أحد بأبسط الأمور، فأنهم سرعان ما يطبقون المساواة فيما بينهم بدقة، وحين يرون أن الذي يأمرهم بأمر يطبقه على نفسه ويبدأ به مع ذاته وأهله،يكون أسرع استجابة وأعظم اقتناعا لا كهؤلاء الآخرين الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، فلا تستجيب الناس لهم، وهكذا كان ورع الخليفة في أن يستمتع أهل بيته لشيء حلال وليس في المال حينئذ شبهة لأنه من مصروف البيت الخاص ولكنها النفوس الكبار التي ترفض التمتع بالطيبات في وقت تحتاج فيه البطون الجائعة إلى العيش الضروري." [1]

مثال من رجوعه إلى الحق:

هذا هو العدل في أسمى معانيه جسده عمر - رضي الله عنه -مقتديا بالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وهو مع عدله ومساواته بين الجميع،ومع هيبته وقوته وجرأته كان لا يستحى ولا يجد حرجا من الرجوع إلى الحق إذا وقع في خطأ ما،فهو ليس بمعصوم من الخطأ لأنه بشر قبل كل شيء، ومن الفضيلة الرجوع إلى الحق إذا شعر المرء بخطأ أرتكبه أو تنبه إليه وهو غافل عنه ." والرجوع إلى الحق من أهم أسس العمل الإداري الناجح وهو خير من التمادي في الباطل وخير من الاستمرار على الخطأ أو ما ليس بمفيد، وقد ضرب لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثلة على ذلك وهو خير خلق الله حين رجع عن موقفه يوم "بدر" ونزل بالجيش إلى المكان الذي أشار به الحباب بن المنذر، ورجع عن رأيه في تأبير النخل وقال: أنتم أعلم بشئون دنياكم، وهذا فيما لا وحي فيه وليعلّم المسلمين الرجوع إلى الحق.

وهاهو سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تسور على قوم يشربون الخمر ليأخذهم على غرة فأنكروا عليه أمور ثلاثة :وهي دخوله عليهم من غير الباب وقد قال الله تعالى: " وأتوا البيوت من أبوابها"[2] وأخذوا عليه عدم الاستئذان وقد قال تعالى:" يأيها الذين أمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها "[3]،والتجسس عليهم وقد نهى الله عن ذلك بقوله تعالى: " يأيها الذين أمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن

١- العشرة المبشرون بالجنة / ملحق بجريدة صوت الأزهر / بقلم د أحمد عمر هاشم / ص ٢٣ (بتصرف)
٢- سورة البقرة من آية ١٩٨
٣- سورة النور من آية٢٧

بعض الظن إثم ولا تجسسوا"[1]، فأثنى عليهم ورجع بعد أن لزمته حجتهم ولم يأنف لذلك ولم تأخذه العزة، بل هو الحق. [2]

قال حافظ إبراهيم مصورا ذلك :

وفتية ولعوا بالراح فانتبذوا لهم مكانا وجدوا في تعاطيها
ظهرت حائطهم لما علمت بهم والليل معتكر الأرجاء ساجيها
حتى تبينتهم والخمر قد أخذت تعلو ذؤابة ساقيها وحاسيها
سفهت آراءهم فيها فما لبثوا أن أوسعوك على ما جئت تسفيها
ورمت تفقيههم في دينهم فإذا بالشرب قد برعوا"الفاروق" تفقيها
قالوا : مكانك قد جئنا بواحدة وجئتنا بثلاث لا تباليها
فأت البيوت من الأبواب(ياعمر) فقد يُزَنُّ من الحيطان آتيها
واستأذن الناس أن تغشى بيوتهم ولا تلم بدار أو تحييها
ولا تجسس فهذي الآي قد نزلت بالنهي عنه فلم تذكر نواهيها
فعدت عنهم وقد أكبرت حجتهم لما رأيت كتاب الله يمليها
وما أنفت وإن كانوا على جرح من أن يَحُجَّك بالآيات عاصيها

هكذا كانت شخصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -كما صورها حافظ إبراهيم وكما ذكرت كتب السيرة الشخصية المثالية الفريدة،والقدوة الحسنة في الورع والتقوى، والقوة والهيبة والعدل والمساواة، وقد أستطاع حافظ أن يصورها تصويرا رائعا لتكون أنموذجا حيا يحاكيه أولوا الأمر، وحافظ لم يعمد إلى سرد كل تاريخ عمر ومواقفه بل اختار بعض الجوانب الهامة التي تعد بمثابة نموذجا فريدا للشعب العربي الذي يفتقد إلى العدل والمساواة والديمقراطية، والحكم الصالح وقد أراد حافظ بهذه الوقفات أن يبعثها مرة أخرى ليهتدي بها الناس جميعا، ساستهم وعامتهم، ولهذا جاءت هذه الخاتمة العمرية ليكشف فيها الشاعر عن الباعث أو الهدف الذي حدا به إلى نظمها،وهو هدف تربوي أخلاقي يتلخص في أمله أن تكون هذه الشخصية مثلا أعلى للناس عامة وللشباب خاصة يتأثرون بمناقبه، ويتخذون من هذا الماضي المضيء منطلقا لحياة طيبة في الحاضر والمستقبل :

هذه مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها
في كل واحة منهن نابلة من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل في أمة الإسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى نرى بعض ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عين غافيها

وإذا كان سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -بمثالياته في الحكم والإدارة جاء بما يصعب على البعض اليوم أن يأتي به،بل ويعجز البعض الآن عن الإتيان بمثله، فإنه ليس من المستحيل أن يقترب الناس من هذه النماذج العالية وتلك المثاليات الراقية، فإن الذي قام بذلك ليس نبيا معصوما، وإنما هو من الخلفاء الراشدين المهديين الذين أمرنا رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - أن نقتدي بهم حيث قال " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ".

---

١ - سورة الحجرات من آية ١٢
٢- العشرة المبشرون بالجنة / ص ٢٣ (بتصرف)

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر "حافظ "من خلال القصيدة العمرية

وأغلب شعر حافظ خاصة القصيدة العمرية جمع كثيرا من الخصائص الفنية التي عرفها النقاد في شعره، وسوف نقف عند بعضها من خلال هذا المبحث،خاصة أن القصيدة العمرية كانت مظهرا من مظاهر بلاغته وشاعريته لنرد بها على من اتهمه " بأن شعره سهل المتناول قريب التعبير لا يجد قارئه في شعره ما يشبع هواه وخياله، رزق عطف القلوب، ولم يرزق عطف الأخيلة، وأن شعره ضحل قليل العمق تأسرك سطوة ألفاظه فإن فتشته وجدته خاليا من فحولة المعنى وعمق الفكر، وأن الجانب الخطابي هو المهيمن عليه ؟ ويكاد يتفق النقاد على أن حافظا حريص على اللفظ والجرس الموسيقي القوي، فكان اللفظ القوي الخطوة الأولى في فنه، وأما المعاني فتجيء في المرتبة الثانية، وأن ديباجته "نسجه" أقوى من نسج غيره وأنه أمهر الصياغة. "[1].

ومن خلال قراءتي للقصيدة نتوقف عند أهم الخصائص الفنية التي اتسمت بها وذلك من خلال عدة محاور لعل أهمها :

أولاً: الشاعر والقصيدة :

تعد القصيدة العمرية من أجود شعر حافظ، فهي دمعة حزينة على أيام وعهد "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه -وما كان يتمتع به كخليفة وقائدا للمسلمين من عدل وقوة ورحمة وحرية وجرأة، وما كان في عصره من أمن وأمان واستقرار ومساواة..... وتمثل القصيدة العمرية الشعر الملحمي في الأدب العربي الحديث، التزم الشاعر فيها التزاما واضحا بالأحداث التاريخية، وبرزت فيها النزعة الإسلامية،والعواطف الإيمانية، وتجلت فيها شاعريته القوية." فحافظ" في الطليعة من شعراء عصره، منحه الله عاطفة قوية، ونفسية فنية سمت به عن أقرانه من نابتة العصر، وكان له في" البارودي" أسوة حسنة، ومثال يقتدي به، فقد تأثر به وقلده واتبع طريقته، وسار على نهجه في بداية مشواره الأدبي، إلا أنه ابتكر لنفسه أسلوبًا تميز به عن معاصريه من الشعراء.

وهذه القصيدة تتناول موضوعا إسلاميًا جليلًا، استدعته ذاكرته ليترحم على هذه الأيام،ويسقطها على ما كانت عليه مصر والأمة الإسلامية من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية سيئة إبان الاحتلال الإنجليزي الذي جثم على صدر الوطن، وما كانت تشهده البلاد من فساد وظلم واستبداد.... فاستدعى هذا الأنموذج الفريد من التاريخ الإسلامي المجيد، ليعيد إلى الأذهان هذا الماضي الجميل بقيمه،وعدله، وقوته،وانتصاراته وغيرها مما يحفز الهمم ويقوي العزائم لاستعادة هذا المجد التليد.

وعلى وجه العموم تعد هذه القصيدة ومثيلاتها من الشعر الإسلامي من أروع ما نظم حافظ، تشهد له بصدق عواطفه ومشاعره النبيلة، كما تؤكد انتمائه إلى أمته العربية والإسلامية وتمثل اتجاهاته الوطنية والقومية، ونضاله وأمثاله ضد المستعمر دون إفصاح أو تصريح.

وتتمتع هذه القصيدة بشهرة كبيرة منذ نظمها إلى يومنا هذا، وهي من فرائد شعره، وخاتمة القصيدة تعطينا تفسيرا واضحا ومنطقيا لما ترمز له وتوحي به يقول :

١- الأدب العربي الحديث / محمد صالح الشنطي / دار الأندلس / ط ٦ ٢٠٠٨م /ص ٩٨

هذه مناقبه في عهد دولتــه للشاهدين وللأعقاب أحكيها
في كل واحدة منهن نابلــة من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل في أمة الإسلام نابتــة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى نرى بعض ما شادت أوائلها من الصروح وماعاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عين غافيها

فالقصيدة في جملتها أثر من آثار التأمل الذي يعتري الإنسان عند تقلص الأيام، وتقلب الدنيا وتغير الأحوال، ويدفعه إلى عرض الماضي في صفحة الفكر، فإذا بكى عليه كان بكاؤه عصارة تجارب وآلام وأحزان. فالأبيات دمعة حزينة دامية على أيام "عمر" - رضي الله عنه -وحكمه وما كان يحيط به من عدل وقوة.

ولعل الشاعر نظم هذه القصيدة المطولة ليرمز بها إلى الحلم الذي كان ينشد تحقيقه للأمة العربية.

لقد استطاع "حافظ" أن يبرز من شخصية الفاروق - رضي الله عنه -مواقفها المتوهجة، وجوانبها الفذة التي جعلت منه شخصية من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي، فهو - رضي الله عنه - العادل الجليل المهيب الجدير بلقب "الفاروق " وقد أراد الشاعر من وراء سرد حياة عمر استنهاض الهمم، وحث الأمة الإسلامية والعربية على النهوض والتمرد على الأوضاع المزرية، والفساد المنتشر في كل مكان، ويتخذ من بطولات " عمر " ومواقفه قدوة ومثل أعلى، ليسترد حقوقه من ظالميه، ويحطم سلاسل الظلم والقهر.

وهذه القصيدة " نظمها جيد منبئ عن مقدرة فائقة وأكثر أبياتها سليم متين الصياغة، ومع أنها ليست بأروع شعر حافظ رنة نغم ومحض سحر بيان، هي بلا أدنى ريب نص عظيم الأهمية، من حيث دلالته على نوع الفكر العربي المصري المسلم آنئذ، وأفاق اتجاهاته،ومكان حافظ الشاعر منه و مدى تأثيره فيه..... "[1]

ثانيًا: العاطفة والصدق الفني :

والعاطفة المسيطرة على الشاعر في هذه القصيدة هي عاطفة الحب والإعجاب المفرط لتلك الشخصية الفذة، وقد انعكس هذا على ألفاظه وصوره، وعلى تلك الصفات التي سردها والمستمدة من مبادئ الإسلام وقيمه، كالعدل، والرحمة، والمساواة، والقوة، والحزم..... الخ.

والمتأمل لهذه القصيدة يلاحظ أنها على الرغم من كونها سرد تاريخي لحياة "الفاروق "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه -إلا أننا نلمس فيها حرص الشاعر على الصدق الفني.

لقد أحب "حافظ" شخصية "عمر" - رضي الله عنه -حباً جما ملك عليه كل مشاعره وجوارحه ، واعتبره امتدادا لعدل وقيم الرسول - صلى الله عليه وسلم -، لهذا حين تقرأ شعره في أي غرض من الأغراض التي تناولها تتعلق بالإسلام ستجد أنها تميزت بصدق العاطفة ، فقد التزم حافظ الصدق سواه بمعناه الخلقي ، فلم يجانب الحقيقة والعرف ، أو بمعناه الفني. حيث فضل أنه يعبر عن مشاعره الحقيقية تجاه الأحداث ،بحيث يكون كلامه

١- شوقي وحافظ في مرآة النقد / إعداد وتقديم محمد عبد المطلب / ط المجلس الأعلى للثقافة ٣ ص١٢٩من مقال للأديب عبد الله الطيب

مطابقا للواقع ولما في نفسه،لهذا وجدنا القصيدة نالت الاستحسان والقبول لدى العامة والخاصة.وما زل صداها يتردد إلى الآن في مسامع العامة والخاصة.

وإذا كانت القصيدة لا تعالج قضية بعينها إلا أن الشاعر من خلالها يدعو ضمنيا إلى مجموعة من المثل العليا التي تحقق الصلاح والفلاح لأي أمة، وفي أي مجتمع.

"رحم الله حافظا لم يكن فردا يعيش لنفسه وبنفسه، وإنما كانت مصر كلها بل الشرق كله، بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان تعيش في هذا الرجل، تحس بحسه وتألم بقلبه، وتفكر بعقله، وتنطق بلسانه،ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه" كحافظ رحمه الله"فليس غريبا أن تقع الكوارث من نفسه أشد وقع، وأن تثير فيها عواطف لذاعة من الألم والحسرة، ومن الحزن واللوعة، وليس غريبا أن ينطق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد من غير مشقة ولا عناء ويصل إلى هذا المنزلة التي لا يصل إليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين."[1].

لقد ظهرت عاطفة الإعجاب بشخصية عمر قوية تأججت في أعماقه ثم ارتدت على لسانه شعرا يرويه جيل بعد جيل، وجاءت هذه القصيدة صورة صادقة لخواطره ومشاعره.عاطفة الحزن والأسى لما آل إليه حال الأمة، لقد أفرغ حافظ شحنة انفعاله ومشاعره،وعبر عن عواطفه بأسلوب ملائم للحالة النفسية التي كان يعيشها وتعيشها الأمة الإسلامية، نلمح هذا من النغم الحزين الذي تتصاعد نغماته القوية من خلال حسن استخدام الألفاظ الملائمة للمعاني كما جاء في قوله واصفا مقتل عمر رضي الله عنه:

طعنت خاصرة "الفاروق" منتقما ... من الحنيفة في أعلى مجاليها
فأصبحت دولة الإسلام حائرة ... تشكو الوجيعة لما مات آسيها
مضى وخلفها كالطود راسخة ... وزان بالعدل والتقوى مغانيها
تنبو المعاول عنها وهي قائمة ... والهادمون كثير في نواحيها
حتى إذا ما تولاها مهدمها ... صاح الزوال بها فاندك عاليها
واهاً على دولة بالأمس قد ملأت ... جوانب الشرق رغدا من أياديها

انظر إلى هذه الأبيات، وكيف عبرت بصدق عن الواقع المرير للدولة الإسلامية وما آلت إليه بعد فقدها الفاروق وقد استخدم الشاعر الأسلوب التعبيري المناسب الذي يظهر لوعته وحزنه وألمه.

لقد أحسن الشاعر حين نبه المسلمين إلى الواقع المؤلم لدولتهم والمتربصين لهدمها. إننا نلمس صدق العاطفة وعمقها في هذه الأبيات، وغيرها ونرى إلى أي مدى قد أثرت هذه العاطفة النبيلة في اختيار صوره وعباراته فجاءت ملائمة للمعنى الذي عرضه.وهكذا نجد صدق العاطفة في كل بيت من أبيات القصيدة.

الألفاظ والأساليب :

يرى د محمد عبد المنعم خفاجي أن الأسلوب هو " نهج الكاتب والشاعر في صوغ أدبه وشعره، وأداء أفكاره ومعانيه، والطريقة التي يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه، مما يؤثر في لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة، ومن وضوح أو نقاء وطبع وصنعه، وألوان الصنعة في شعره من تشبيه واستعارة وكناية.....، وطرق

١- حافظ وشوقي / د طه حسين / ص ١٤١.

الأداء التي يسير عليها في صياغته من تقديم أو تأخير وذكر وحذف، وإيجاز وأطناب إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب [1].

وإذا نظرنا إلى القصيدة العمرية من ناحية الألفاظ والأساليب نجد أنها تتمتع بعدة مزايا منها :

- الدقة الشديدة في أداء الألفاظ لمدلولها، بل ونجد في القصيدة مواضع تحفل بألفاظ توحي بحشد هائل من معاني إضافية تؤكد المعنى الأصلي وتقويه.

- أن ألفاظ القصيدة تتسم بالأصالة والجزالة والقوة، مستمدة في أغلبها من القاموس القديم، تدل على تمكنه اللغوي، فهناك بعض الشعراء خاصة حين تطول القصيدة يلجأ إلى اصطياد كلمات يملأ بها فراغ قصيدته دون أن تضيف شيئا في المعنى، لكن الشاعر هنا نأى عن هذا الأمر وجاءت ألفاظه واضحة ملائمة للجو النفسي، وجاءت العبارات جزلة محكمة، وهذا لتمكنه من اللغة، وسعة ألفاظه وثقافته اللغوية التي أعانته دون جهد أو تكلف.

- هذا التمكن اللغوي جعل الشاعر في أكثر من موضع في القصيدة يأتي بما يناسب القافية أو كما يقال يمهد للقافية بما هو مشتق منها أو بما يناسبها من مثل قوله :

مولى المغيرة، لا جادتك غادية من رحمة الله ما جادت غواديها

وقوله:

وما أفلت (أبا سفيان) حين طوى عنك الهدية معتزا بمهديها

وقوله:

وراع صاحب (كسرى) أن رأى عمرا بين الرعية عطلا وهو راعيها

وكأنه من باب رد الصدر على العجز، وهذا له وقع موسيقي في الكلام يثير انتباه السامعين.

- تنوعت الأساليب بين إنشائية وخبرية تقريرية، مما جعل قصيدته حية تنبض بالحركة،معبرة تدل على قلب مفعم بالحب والإعجاب تارة، والحزن والألم تارة أخرى.

- تميزت أساليبه بفصاحة الألفاظ وجزالتها وبعدها عن الغرابة والغموض، وجاءت عباراته جزلة محكمة النسج، كما برع في استخدام الألوان البلاغية التي جاءت بدون تكلف مما أكسبت الأفكار وضوحا، وجاءت خادمة للمعاني انظر مثلا إلى موقفه من جبلة بن الأيهم :

كم خفت في الله مضعوفا دعاك به وك،م أخفت قويا ينثنى تيها
فما القوي قويا رغم عزته عند الخصومة (والفاروق) قاضيها
وما الضعيف ضعيفا بعد حجته وإن تخاصم واليها وراعيها

يظهر من خلال هذه الأبيات وغيرها الطبع السليم الذي تتداعى فيه المعاني والألفاظ في تلقائية آسرة، تدل على أن الشاعر كان يجرى ألفاظه وعباراته على سجيتها دون تكلف،أو معاناة لاستدعاء الألفاظ، ويظهر حسن استخدام الألفاظ في مكانها الملائم،وما تحمله من دلالات وإيحاءات ومشاعر أكثر من معناها اللغوي، بل ويظهر أيضا حسن استخدام التقابل والتوازن الصوتي الذي يقرب المعنى من أذهان السامعين، كما أن الجرس الموسيقي في القصيدة واضح الاتزان والانتظام نتيجة هذا التمكن اللغوي.

١- ينظر تاريخ الأدب الأموي / د محمد عبد المنعم خفاجه / ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٥م ص ١١٠.

- لقد جاءت ألفاظه وأساليبه تعبر عن نفسه المنفعلة الحزينة على ما آلت إليه أمر الأمة الإسلامية، فجاءت متناغمة حارة تحكي لواعج قلبه وصدق مشاعره،متناسبة مع الجو الشعوري الذي تصوره.

- ظل حافظ متمسكا ومحتفظا بالطابع القديم للقصيدة العربية من قوة الألفاظ وجزالتها ورصانتها ، لقد تسربت ألفاظ كثيرة إلى معجم الشاعر في هذه القصيدة، بل ومن الصور التراثية، التي تدل على تمسك الشاعر بالأصالة العربية للقصيدة القديمة، وقد تأثر الشاعر بهذا الرافد تأثرا ملحوظا، كيف لا وهو من أصحاب مدرسة المحافظين الذي هي امتداد لمدرسة الإحياء والبعث الذين كان إحساسهم كبيرا بواجبهم نحو لغتهم، ونزعتهم إلى إحياء التراث القديم.

- وإلى جانب ذلك هناك أيضا عدة روافد أسهمت في تكوين معجم "حافظ" الشعري في هذه القصيدة وغيرها ، كان من أهمها :

- القرآن الكريم الذي يعد من أهم الروافد سطوعا في شعره وفي شعر الشعراء على مر العصور.

وقد ظهر هذا بوضوح في شعر حافظ خاصة في القصيدة العمرية التي ظهرت فيها المعاني والألفاظ الإسلامية بوفرة،حيث اقتبس وضمن أبياته كثيرا من ألفاظ ومعاني القرآن من مثل قوله :

يا ليتهم سمعوا ما قاله "عمر" والروح قد بلغت منه تراقيها

إشارة إلى قوله تعالى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)[1]

كما أن هذا النداء الحزين الذي يوحى بالتمني والأسى، استوحاه من أسلوب القرآن الكريم من مثل قوله تعالى في سورة مريم " يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا "[2] أو"يا ليتها كانت القاضية "[3]

١- سورة مريم من آية ٢٣

٢- سورة الحاقة آية ٢٧

. أيضًا أساليب القسم المتنوعة يقول :

والله ما غالها قدما وكاد لها واجتثت دوحتها إلا مواليها

وقوله :

تالله لو فعل " الخطاب فعلته لما ترخص فيها أو يجازيها

وقوله :

فأت البيوت من الأبواب(ياعمر) فقد يُزَنُّ من الحيطان آتيها
واستأذن الناس أن تغشى بيوتهم ولا تلم بدار أو تحييها
ولا تجسس فهذي الآي قد نزلت بالنهي عنه فلم تذكر نواهيها

فالبيت الأول إشارة إلى قول الله تعالى: (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) [١]

أما البيت الثاني فهو إشارة إلى قول الله تعالى:" يأيها الذين أمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها " [٢]

، كذلك البيت الثالث إشارة إلى قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)[٣].

كذلك تأثر بالحديث النبوي الشريف،ومن كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- واقتبس منه بعض الألفاظ والمعاني التي برزت في هذه القصيدة منها :

غزى فأبلى وخيل الله قد عقدت باليمن والنصر والبشرى بنواصيها

وفيه إشارة إلى قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" [٤] لكن الشاعر هنا أدخل الباء على النواصي "لا على اليمن على سبيل القلب، والقلب في اللغة سماعي.

في فتح مكة كانت داره حرما وقد أمَّن الله بعد البيت غاشيها

إشارة إلى ما اختص به الرسول -صلى الله عليه وسلم -أبا سفيان يوم فتح مكة من جعل بيته أمنا لمن دخله واعتصم به من المشركين " بعد البيت " أي بعد الكعبة.

ومن الأساليب التي استخدمها الشاعر في قصيدته أساليب الدعاء،والنداء كما جاء في مستهل قصيدته:

لاهم هب لي بيانا أستعين به على قضاء حقوق نام قاضيها

فكلمة "لاهم" أي اللهم، ثم هذا الأمر الذي قصد به الدعاء في "هب لى بيانا أستعين به "أي يارب، وهذه الأساليب جاء بها الشاعر لترسيخ المعنى في ذهن المتلقي وتأكيده،كذلك أستخدم أسلوب القصر في أكثر من موضع في القصيدة من مثل قوله :

فما يعالج من قول ولا عمل إلا أراد به للناس ترفيها
وما واقع الروم إلا فرقارحها ولا رمى الفرس إلا طاش راميها

١- سورة القرة من آية ١٩٨
٢ - سورة النور من آية٢٧
٣- سورة الحجرات من آية ١٢
٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٢٣٧١ (باب مناقب الصحابة

وهكذا جاءت ألفاظه وأساليبه مأنوسة مألوفة متناغمة مع معانيها، لا غموض فيها ولا لبس ولا يحجب صفاءها ووضوحها غريب من اللفظ،ولا تضن بمعانيها، محكمة التأليف قوية السبك،لذا وجدت قبولا وصدى في نفس المتلقي.

الأفكار والمعاني :

لعل من مزايا القصيدة العمرية أنها تعالج وتتناول فكرة معينة، فتجعل كل المعاني نابعة من هذه الفكرة، وملتفة حولها، ومرتبطة بها ارتباطا وثيقا.كما أنها تبرز المعاني والأفكار في كثير من محاورها في قالب مجسد،اعتمد الشاعر فيه على التشخيص، وكأن هذه المعاني لوحات فنية تبرز فيها الصور مرئية للعيون.إلا أنه مما يؤخذ عليه في هذه القصيدة أنه لم يراع أو يلتزم الترتيب التاريخي للأحداث، فقد أورد مثلا حادث عزل خالد بن الوليد بعد حادث جبلة بن الأيهم، وما دار بين عمرو وبين أبي سفيان رضي الله عنهما والصحيح أنه وقع قبلهما ولكنه حسبه في ذلك أن القصيدة لم تكن سردا تاريخيا لحياة عمر - رضي الله عنه -، بقدر ما كان الهدف منها التقاط بعض الحوادث التاريخية الدالة على شخصية عمر وما ينبغي أن يكون عليه حاكم المسلمين، من خلال إبراز المناقب والملامح النفسية والروحية في شخصية عمر - رضي الله عنه -لتكون مثالا ونموذجا يحتذى به على مر العصور. لهذا جاءت المعاني في قصيدته تنساب من قريحته الصافية الخصبة، واضحة جلية مرتبطة بوجدانه الصادق،وقلبه الخافق، لا يعتريها غموض، ولا يكتنفها تكلف أو ثقل، برزت كما ارتسمت في مخيلته في عرض منطقي يبدو فيه أثر الإسلام جليا، وصدق العاطفة جاء واضحا بارزا.وقد استعان الشاعر بكثير من الحلل البيانية والمحسنات البديعية لإبراز المعنى وتقويته في ذهن السامع، ويصور ما يعتلج في نفسه من مشاعر وانفعالات، ساقها الشاعر في عفوية استدعتها طبيعة المعاني، فجاءت ملائمة للمنهج الذي سلكه من المحافظة على التراث العربي القديم.

وواضح من خلال القصيدة أن الأفكار امتزجت مع عواطفه وانفعالاته المكتومة فجاءت واضحة عميقة فيها تحليل وتفصيل وترابط، إذ يربطها خيط واحد هو الإيمان المطلق بهذه الشخصية المثالية.

و مما لا شك فيه أن "حافظا" قرأ القرآن الكريم ، وشيئا من الحديث الشريف ، فكان من الطبعي أن يتأثر بكليهما،وقد ظهر هذا جلياً في شعره خاصة الإسلامي منه ، إذ تميز شعره الإسلامي برقة الألفاظ ، وسحر النظم ، وصدق العبارة ، ووضوح المعنى ، الأمر الذي جعل شعره يلامس شغاف القلوب ، ويستقر في الأذهان. ولعل أول ما نلاحظه من تأثره بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة ورود كثير من الألفاظ والمعاني الإسلامية في شعره وذلك مثل ما نجد في قوله مادحاً عمر - رضي الله عنه -:

في الجاهلية والإسلام هيبته تثني الخطوب فلا تعدو عواديها
في طي شدته أسرار مرحمة للعالمين ولكن ليس يفشيها
وبين جنبيه في أوفى صرامته فؤاد والدة ترعى ذراريها
أغنت عن الصارم المصقول دِرَّته فكم أخافت غويَّ النفس عاتيها
كانت له كعصا "موسى" لصاحبها لا ينزل البطل مجتازا بواديها
أخاف حتى الذراري في ملاعبها وراع حتى الغواني في ملاهيها

انظر إلى هذه المعاني التي أوردها "حافظ " في هذه الأبيات التي تصور مثال من هيبة "عمر"- رضي الله عنه -كيف تنساب من قريحة شاعر مطبوع، فتصور هيبة

"الفاروق " كما ارتسمت في مخيلته في عرض منطقي سلس،وكما هو ظاهر يبدو أثر الإسلام واضحا في معاني الأبيات وألفاظها ،كذلك جاءت الألفاظ متناغمة مع المعاني الذي أراده الشاعر. الأبيات كما نرى قد تضمنت بعض الألوان البلاغية التي أكسبت المعنى قوة وأبرزته وأكدته في ذهن المتلقي ، وحافظ " جعل سيرة عمر دون محض المديح النبوي مجالا لتقربه الديني لا أحسبه خلا من روح القصد على مسايرة معاني التقدم التي يمثلها العدل والاشتراكية الإسلامية ن والجدل والنخوة العربية المتضمنان في شخصية عمري - رضي الله عنه -، وتكاد معانيه تدل على ما عرف باسم القومية العربية تطل من قوله:[1]

واها على دولة الإسلام قد ملأت جوانب الشرق رغدا من أياديها
والله ما غالها قدما وكاد لها واجتثت دوحتها إلا مواليها
لوأنها في صميم العرب قد بقيت لما نعاها على الأيام ناعيها
يا ليتهم سمعوا ما قاله (عمر) والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فإن لهم مطامعا بسمات الضعف تخفيها

ولاشك في أن "العمرية في جملتها تتضمن كثيرا من المعاني والأقاويل التي كأنها أصول للاتجاهات العصرية السياسية ذات الطابع القومي الديني ن الناظر بعين إلى مثالية عمر العمرية وبأخرى على مذهبيات الاشتراكية الأوربية، من أجل هذا ما زعمنا من قبل أنها نص عظيم الأهمية من حيث دلالته على نوع اتجاه الفكر العربي المسلم آنئذ وآفاق اتجاهاته ومكان حافظ الشاعر منه ومدى تأثيره فيه." [2].

حافظ إبراهيم في عيون النقاد والدارسين :

يعتبر الشاعر "حافظ إبراهيم" من أشهر شعراء العرب في العصر الحديث، ورائدا من رواد مدرسة المحافظين التي هي امتداد لمدرسة الإحياء والبعث، وقد حظي شعره بعناية كبيرة من قبل الدارسين والنقاد منذ ظهوره حتى يومنا هذا ، بل ودارت حوله وزميله "شوقي " حركة نقدية واسعة على صفحات الصحف والمجلات بل والكتب الأدبية.

فقد عُرف عنه أنه كان شاعراً متميزا متفوقاً ،كان يعرف كيف يستولي على مجامع القلوب والأنفس، حتى أصبح محل اهتمام كثير من النقاد والباحثين ، وقامت حوله العديد من الدراسات والأبحاث العلمية والأدبية حتى يومنا هذا.

وقد تعاونت الأحداث التي مر بها حافظ إبراهيم في حياته في صهر شاعريته، فصار له نهجه وأسلوبه في نظم الشعر، وصار شعره يتجاوب مع حياته في التلقائية والنفور والتكلف، وقد اجتمع لحافظ من متخير القول ومصفى الكلام شعرا ونثرا ما لم يجتمع إلا للقليل فكان يرصد الحوادث الاجتماعية والسياسية كما يرصدها رجال مصر على اختلاف مناصبهم، فيصوغها الصحفيون الوطنيون مقالات حارة قوية، ويصوغها القادة وأولوا الرأي أفكارا ينادون بها في مجلس الشورى أو الجمعية العمومية، أو أحاديث وحكما وأمثالا في مجالسهم الخاصة، ويصوغها حافظ شعرا قويا يغذي نفوس الشباب، ويلهب شعور من سمعه [3].

١- شوقي وحافظ في مرآة النقد / إعداد وتقديم محمد عبد المطلب / ١٣٢
٢- ينظر مقدمة ديوان حافظ ص ٨٥

٣- حافظ إبراهيم ص ١١٧

نظم حافظ في أغلب الأغراض الشعرية القديمة والجديدة، وكان شعره يمتاز بديباجته التي تتمثل في جزالة ألفاظه وصناعته الشبيهة بصناعة البحتري وأبي تمام، محافظا على عمودية القصيدة وصياغتها القديمة يقول صديقة عبد العزيز البشري في مرآته :" أن شعره مشرق الديباجة جزل اللفظ، صافي القول، محكم النسج، رصين القافية ترى معناه في ظاهر لفظه، فإذا أقبل عليك ينشدك من شعره انصرف البيت يتشرف وحدة القافية استشرافًا حتى لتفيض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها [١].

أما "العقاد" فقد وصفه بأنه صناجة الأمة وقال عنه : " كان حسن الإنشاء بل رائع الإنشاء يلقى شعره بصوت جهوري عميق،ولهجة أقرب إلى الترتيل فيها إلى مجرد الإلقاء، ويستعيده السامعون أبياته، ثم يستعيدونه القصيدة بعد الفراغ منها طربا للصوت بالإنشاد، قبل أن يمعن في نفوسهم الإعجاب بالمعاني والكلمات،وكان يختار كلماته بجرسها وإيقاعها وموقعها،كأنه يضع ألحانا ولا يضع كلمات [٣].

وإذا كان "العقاد" قد شهد من خلال هذا القول شهادة حق لحافظ إلا أنه وزميله "المازني" كثيرا ما سمعنا منهم هذا الصوت المزري على صنيع "حافظ،وشوقي "، خاصة المازني الذي كان يسخر من محافظة شعراء الإحياء على الصيغة الرصينة التي يستمدونها من القدماء، ويقول : إنها تحيل أشعارهم نسخا متشابهة، لأنهم لا يعمدون إلى تصوير خوالجهم النفسية الحقيقية ولا إلى تمثيل روح عصرهم المتشائمة المحزونة.....[٢].

ويشير الدكتور شوقي ضيف إلى أن المازني كتب سنة ١٩١٤م مقالات متعاقبة في صحيفة (عكاظ) انتقد فيها حافظ نقدا مرا، قارن فيها بين شعر حافظ ،وشعر شكري وقال: "ويلاحظ أن شعر الأخير يمتاز بفضيلة الصدق في الإحساس وتصوير محن البشرية وآمالها وآلامها ومخاوفها فهو شعر جديد، وهو نجوى الفؤاد وحديث القلب والنفس، وهو لذلك شعر مطبوع لا تكلف فيه ولا تصنع،أما شعر حافظ فشعر مصنوع لا يمت إلى النفس التي تنشده بوشائج صحيحة،إنما هو شعر سياسي أو صحفي،شعر مناسبات يومية طارئة، شعر ضعيف أو قاصر، لا يستطيع أن يستلهم في شعره ما في الكون من حق وجمال، شعر لا يصور صاحبه ولا يشف عن نفسه من أحاسيس وعواطف وهو لذلك شعر غير صادق، إنما هو شعر كاذب يقوم على المبالغة والتهويل والخروج عن الحد المعقول....." [٣].

ولعل في هذا الكلام وغيره تحاملا شديدا على حافظ وشعره لا مبرر له،وكان أولى للمازني كما يقول شوقي ضيف أن يتسع بالحديث عن طريقة شكري، وأن يعف عن مهاجمة حافظ هذه المهاجمة العنيفة، فلكلٍ ذوقه ولكل طريقته في صناعة الشعر ونظمه." [٤].

ويكفي حافظ إبراهيم أن شعره لاقى استحسانا وقبولا في نفوس الخاصة والعامة، سواء في عصره أو بعد عصره حتى يومنا هذا وقامت حوله العديد من الدراسات والبحوث العلمية والأبية التي نافحت عنه وأنصفته، ويكفى ما ذكره رفيق دربه "شوقي " في رثائه له منوها بشاعريته يقول :

١- شاعر النيل حافظ إبراهيم / عبد المنعم شميس / ط دار المعارف مصر / ص٣٣

٢- الأدب العربي الحديث في مصر / د شوقي ضيف / ط٨ دار المعارف / ص

٣- نفسه.

٤- السابق ص ٦٤ بتصرف

مازلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء
جددت أسلوب الوليد ولفظه واتيت للدنيا بسحر الطائي

لقد شبه أمير الشعراء شعر حافظ "بالبحتري وأبى تمام " وهما من فحول شعراء العصر العباسي.

ولعل هذه القصيدة التي بين أيدينا والتي نعيد قراءتها تعد نموذجا حيا وردا بليغا على من أنكر شاعرية حافظ وسلبه أي مزية، بل وسلبه صدق المشاعر وأتهمه بالكذب في مشاعره ،بل "وأنه وأضرابه من شعراء مدرسة الإحياء " غير صادقين فيما يعبرون عنه، إذ يعبرون عن معان لا يؤمنون بها فيمدحون من يحتقرونه بينهم وبين أنفسهم ويهجون من يحترمونه. " [1] كما زعم المازني، والعقاد.

والقصيدة العمرية تعد إحدى حسنات حافظ وروائعه الشعرية، فأسلوبها المتين وديباجتها البديعة وصدق مشاعره فيها جعلتها ذائعة الصيت على ألسنة الناس في كثير من المحافل، والوعظ الديني خاصة من يتناولون سيرة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيستشهدون ببعض أبياتها مثنين على شاعرية "حافظ" ، فشعر حافظ ليس بخاف على أحد، فقد بزغ نجمه في زمن تألق فيه البارودي، وأمير الشعراء أحمد شوقي وغيرهما فدخل الميدان وحاز قصب السبق والرهان وشدى بشعره الناس في كل مكان، وكان لشعره صدى في النفوس وتعلقت به القلوب وتجاوبت معه.

أما الدكتور " طه حسين" فيرى أن : " شعره كله جيد سواء في المعنى أو رصانة اللفظ، أو صدق المشاعر."[2].

ونراه في موضع أخر يثني عليه وعلى صاحبه "شوقي" حين يقول : " كلا الشاعرين قد رفع لمصر مجدا بعيدا في السماء، وكلا من الشاعرين قد غزى قلب الشرق العربي نصف قرن، أو ما يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء، وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربي، ورد إليه نشاطه ونضرته،ورواءه، وكلا من الشاعرين قد مهد أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة..... هما أشعر أهل الشعر العربي منذ أن مات المتنبي، وأبو العلاء من غير شك، وهما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي بدأت في نجد وانتهت في القاهرة،..... وهما أشعر العرب في عصرهما..." [3]

ويقول عنه حسن كامل الصرفي: "وحافظ إبراهيم " المصري الصميم دما وشكلا وطباعا، لذلك كان شعره أقرب إلى الروح المصرية في التعبير عن أماني هذا الشعب وأحاسيسه وانفعالاته، كما تميز بالروح المصرية الفكهة في دعاباته : نكات كانت أو شعرا." [4]

" وكذلك كان حافظ رحمه الله شاعرا إنسانيا، يرتفع شعره إلى القمة، في تصوير المآسي الإنسانية سواء في وطنه او في أوطان أخرى. " [5]

١- السابق ص ٦٤ بتصرف
٢- الأدب العربي الحديث، محمد صالح الشنطي، ص ٩٨
٣- حافظ وشوقي، د طه حسين، مكتبة الخانجي القاهرة / ص ١٩٧
٤- شوقي وحافظ في مرآة النقد / إعداد وتقديم محمد عبد المطلب / ١٨١
٥- اتجاهات وآراء في النقد الحديث / د محمد نايل / ص ٥٠

ومما لا شك فيه أن عمرية " حافظ" تجلت فيها نزعته الإسلامية وعواطفه الإيمانية، وقوة عاطفته وصدق مشاعره وسلاسة وعذوبة ألفاظه،وروعة ودقة معانيه، وخفة وجمال موسيقاه،وهي أيضًا دلالة على نسجه الشعري الرفيع، وصناعته الجميلة.

وهكذا ومن خلال النماذج التي عرضتها في بحثي هذا وغيرها من قصائد "حافظ إبراهيم" تبين أن فحولة شعره ورصانته وقوته لم تفارقه ، وأن ما يظهر من ضعف أو لين في بعض أشعاره ليس أصيلاً في فنه الشعري وإنما هو عارض ، ولعل النقاد ذكروا أسباب ذلك في أبحاثهم وكتابتهم.

الخاتمة

وخلاصة القول : لقد فاضت نفس الشاعر بحب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فجلَّى لأبصارنا تلك المثل العليا التي حرص عليها عمربن الخطاب - رضي الله عنه - في حياته وفي قيادته للدولة الإسلامية، والتي يحلم بها كل إنسان أن تتحقق في حياته وفي مجتمعه الذي يعيش فيه ، في لمسات حية نابضة بالحركة، ترقرقت فيها المعاني من قريحته الخصبة المتدفقة، في أسلوب رصين متين، تخير له اللفظ الجزيل الكريم المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، الموحي بجرسه الموسيقي في الأذن والقلوب، والقصيدة تعد من القصائد التي استخدمت الرمز الشعري المستمد من التاريخ الإسلامي الصحيح،متخذا من الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بأبعاده الدينية، والنفسية والخلقية والسياسية، رمزا لرفض الواقع المرير التي تعيشه الأمة الإسلامية، لقد استطاع الشاعر أن يوظف شخصية "عمر - رضي الله عنه - التي أدى دورا تاريخيا بارزا ومميزا في تثبيت وإرساء دعائم الدعوة الإسلامية، وإعلاء قيم ومبادئ الإسلام الحقيقية كما أمرنا بها النبي -صلى الله عليه وسلم -توظيفا يخدم أفكاره وأمانيه لأمته التي ترزخ تحت نير الاستبداد والظلم والفساد،فالأمة الإسلامية والعربية تحتاج إلى شخصية كعمر يعيد لها مجدها التليد وينشر فيها العدل والمساواة والرحمة، ونظرالشاعر حوله فلم يجد ما يحقق تلك الأماني فاستدعى من ذاكرته تلك الشخصية الفذة العبقرية.

يُعد "حافظ إبراهيم " أحد فحول الشعر في العصر الحديث دون خلاف، ويعد رائدا لمدرسة

" المحافظين " التي هي امتداد لمدرسة الإحياء والبعث امتد تأثيره إلى كثيرين من الشعراء في عصره ومن بعده. وقد عده كثيرون أشعر الشعراء في عصره، وقد أكد ذلك كثير من الكتاب والدارسين.

ومن خلال تلك الدراسة تبين مما لا يدع مجالاً للشك أن القيم والمبادئ الإسلامية التي وضع لبناتها الأولى وأرسى قواعدها الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم -وسار على نهجه وطبقها بكل معانيها " الفاروق " عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كانت وستظل إلي الأبد رمزاً للإسلام الأصيل الحقيقي، ووثيقة تاريخه تسجل مكارم الأخلاق والقيم

بمجالاته المتنوعة، قد استطاع "حافظ إبراهيم " ببراعة كبيرة أن ينقل إلي الناس صوره واضحة وصادقة ومشرقه عن تلك المبادئ والقيم الأخلاقية و الإنسانية والاجتماعية التي كانت موجودة وسائده في المجتمع الإسلامي في عهد عمر - رضي الله عنه -ومن قبله في عصر رسولنا الكريم

- -صلى الله عليه وسلم - -،ولعل الصفحات السابقة من دراستنا لجوانب من مواقف عمر وحياته توضح إلي أي مدي كان حريصا على نشر القيم والمبادئ الإسلامية لتكون نبراساً يهتدي بها الأجيال المتعاقبة.لهذا جاءت قصيدة " حافظ "دمعة حارة، وأهات حزينة مكلومة على زمن جميل تولى من غير رجعة، فلا عجب أن رأينا الشاعر من أول بيت يصور جلال الخطب وفداحة الأمر الذي هز كيان الأمة الإسلامية جمعاء وهو موت العدل والقوة والمساواة والرحمة والشفقة المتمثلة في شخص عمر - رضي الله عنه .

لقد شهدت هذه القصيدة وغيرها لحافظ إبراهيم بمقدرته الشعرية ، وموهبته القوية ، لأنه استطاع أن يجول في مجال جديد لم يألفه ألا وهو الإسلام ، الذي هذب معانيه وألان تعبيره ، فصار أسلوبه يجمع قوة التراكيب إلى سلاسة الألفاظ، وسمو المعاني.وإذا كان بعض الباحثين أو النقاد اتهم شعره بأنه افتقر إلى الخيال والمعاني العميقة ، فهذا لا ينطبق على جميع شعره وهو تعميم في غير محله.

وهذه القصيدة وغيرها تؤكد براعته في استخدام الألفاظ التي تخدم المعاني، كما أن معانيها كانت شريفة قوية فيها كثير من المعاني الإسلامية الجميلة ،وقد استعان في إبراز معانيه بكثير من الألوان البلاغية التي أكسبتها رونقا وتأثيرا في القلوب. كذلك جاءت عاطفته قوية اتسمت بالصدق والأصالة وعمق المعاناة، وتدل على ما عمرت به نفسه من شعور إسلامي أصيل.

هذا وقد حاولت قدر جهدي أن أحلل النص تحليلا يؤدي الغرض المنشود، وأرجو أن أكون قد حققت شيئا مما كنت أطمح إليه.

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

المصادر و المراجع

١- القرآن الكريم

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة / عز الدين بن الأثير الجزري / تحقيق محمد أحمد عاشور وآخرون / ط دار الشعب.

٣-البداية والنهاية / إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي /تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي / دارهجر ١٩٩٧م

٤- حافظ إبراهيم شاعر النيل د عبد الحميد سند السندي ط دار المعارف ط ثالثة.

٥- حياة حافظ إبراهيم / أحمد حافظ / مطابع الناشر العربي القاهرة.

٦- ديوان حافظ إبراهيم ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٧- صحيح البخاري / الغمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري/ ضبطه وخرج أحاديثه د مصطفى ديب البغا م دار ابن كثير / دمشق بيروت

٨- صوت الإسلام في شعر حافظ د جابر قميحه دار الصحوة

٩- شعراء مصر وبيناتهم في الجيل الماضي/عباس محمود العقاد /ط نهضة مصر
١٠- شاعر النيل حافظ إبراهيم عبدالمنعم شميس ط دار المعارف
١١شوقي وحافظ في مرآة النقد / إعداد وتقديم محمد عبد المطلب / ط المجلس الأعلى للثقافة ج٣
١٢ الأدب العربي الحديث في مصر / د شوقي ضيف / ط ٨ دار المعارف مصر
١٣- الأدب العربي الحديث / محمد صالح الشنطي دار الأندلس ط ٦
١٤ حافظ وشوقي / د طه حسين / مكتبة الخانجي القاهرة
١٥ تاريخ الأدب في العصر الأموي محمد عبدالمنعم خفاجي مكتبة الكليات الإزهرية ١٩٧٥
١٦ الكامل في التاريخ / ابن الأثير /

المجلات والدوريات:

١- مجلة الدعوة (مجلة إسلامية أسبوعية) ١٩٨٤م
٢- مجلة صوت الأزهر مطابع الأهرام